عمرو حسين

رواية

لا دينا صور

رسالة حب من زمن آخر

دار دوّن

2575565132

إهـــداء

إلى مَن رحلوا من آبائي وأجدادي

لن أنساكم أبدًا؛ فأنا منكم.

في حُب المعادي؛ العجوز الجميلة

١

مُصطفى

نصحني وجدي بالكتابة!

تلك كانت البداية. أمسكتُ بالقلم وكتبت، لم أتصور مُطلقًا كيف تغيرتْ حياتي تمامًا بعدها. وعلى الرغم من إجادتي للخطوط العربية، فأنا لم أكن يومًا كاتبًا. عشتُ سنوات عُمري الطويلة دون أن أكتب شيئًا. أو لعلَّني كتبتُ قليلًا في شبابي، لم أعُد أذكر. تُداعبني ذاكرتي طوال الوقت، فأتذكر أشخاصًا وأحداثًا مضت منذ عشرات السنين، بينما قد أنسى ما أقول أثناء كلامي في نفسِ اللحظة. يقولون إن الذاكرة القديمة تبقى أكثر من الذاكرة الحديثة. سأكمل الكتابة قبل أن أنسى ما أقول.

هكذا أمسكتُ بالقلم وكتبت. وبمناسبة الحديث عن القَلم، فأنا أنتمي للجِيل المُنقرِض الذي يكتب بالورقة والقلم. أفخر دائمًا بأنني أكتب بالقلم مثل العقاد وطه حُسين ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ويحيى حقي وعبد الحميد جُودة السحار... وغيرهم من جيل عمالقة الأدب العربي. بينما أعلمُ جيدًا أنني أعيش في زمن «الكيبورد»، زمن الكُتَّاب الجُدد الذين لا أذكر أسماءهم، باستثناء أحمد مُراد ومُصطفى شُهَيب (إذا لم تَخُني الذاكرة). أما الأول فيبدو أنه كاتبٌ مشهور هذه الأيام، أخبرَتْني عنه حفيدتي نادية في إحدى المُكالمات. وأما الأخير، فهو كاتبٌ وصحفيٌّ شابٌّ خفيف الظِّل،

قابلني أمام أحد مقاهي المعادي وأهداني أحدَ كُتبه. لا أذكر اسم الكتاب الآن (ملحوظة: يمكن تعديل هذه الفقرة لاحقًا إن وجدتُ الكتاب بمكتبتي).

أرجو ممَّن يقرأُ سُطوري هذه أن يلتمس لي العُذر؛ فأنا أكتب بلا خطة. أنا أكتب ما في قلبي فقط؛ أملًا أن يصل إلى قلب من يقرؤه يومًا. لا يعني ذلك أنني أكتبُ بلا هدف، بل على العكس تمامًا، عندي هدفٌ واضح: ذلك الهدف هو الدافع، هو القوة التي تُمكِّنُني من الإمساك بالقلم والعمل بحماسِ شابٍّ في العشرين لأروي لكم هذه القصة. بالطبع ليست قصةَ حياتي كلُّها، ولكنها أحداثٌ بسيطة مرت عليَّ منذ شهور وقلبَتْ حياتي رأسًا على عَقِب.

كدتُ أنسى أن أُخبركم عن وجدي. هو الأستاذ «وجدي زكي لطفي»، صديقي منذ ما يقرب من خمسين عامًا. هو أيضًا من المعادي، وعضو عامِل في «نادي المعادي الرياضي». يقول وجدي عني إنني حَكَّاء، وإنه يستمتع بحكاياتي عن المعادي، أو عن زوجتي الراحلة وأبنائي. أعرف وجدي منذ نصف قرن. فرَّقتنا الدنيا وتزوج كلٌّ منَّا وصِرنا لا نلتقي إلا صدفةً. ظلَّ وجدي من رُوَّاد النادي طوال هذه الفترة، بينما أنا تزوجتُ وسافرت وتلطمتْ في الدنيا من مكانٍ إلى مكانٍ حتى كبر أولادي وسافروا بعدها. وفجأة رحلتْ زوجتي شريكةُ حياتي، وانفض العزاءُ وأصبحتُ وحيدًا دون سابق إنذار.

دعاني وجدي للانضمام إلى شِلَّتِه بالنادي حيث يقضون نصف اليوم في حديقة النادي المُشمِسة أو في لعب الطاولة في الحُجرة المُخصصة لها بالنادي. «وجدي» و«سعيد» هما الباقيان من أصدقائي القُدامى. أما الآخرون فقد تعرفت عليهم على كِبَر. لم أكن قد لعبت الطاولة منذ عشرات السنين؛ ولذلك فقد توالت الهزائم عليَّ لدرجة أنني أصبحت أتعجب لو فُزتُ مرة بالصدفة. بينما صار الجميع يتسابق على هزيمتي لتحقيق نصرٍ مُزيف.

بعد فترة أدمنت وجودي في النادي بشكل يومي فقد أعاد لي هذا المكان الكثير من الذكريات فأحيا قلبي مرة أخري، وحكيتُ لوجدي وسعيد وبعض رُفقاء الطاولة عن حياتي. أخبرتهم عما بقي في ذاكرتي من السفر والمغامرات والعمل والحياة والحب والنساء. اعتدتُ الاندماج كثيرًا في الحكي حتى أضحك أو أبكي أحيانًا. وفي المساء أعود إلى بيتي وحيدًا فلا اجد ما اقضي فيه اخرَ ساعات يومي. مُنذ شهور وبعد ان قصصتُ عليهم إحدى حكاياتي، نصحني وجدي بالكتابة!

قال لي: اكتُبْ ما تحكيه لنا، أسلوبك جميل وحكاياتك شائِقَة. في البداية تعجبت من الاقتراح. ظللت لمدة أسبوع أتخيل نفسي وأنا أكتب. بدأت أفكر في أسلوب الكتابة وما سأكتبه. عُدت لوجدي وسألته: ماذا أكتب؟ فأجاب ببساطة: يومياتك، اكتُب وستأتي الأفكار كلُّها إليك مرة واحدة.، اكتُب الآن وفكِّر لاحقًا!

تعجبت من قوله ولكنني لا أنكر أن الفكرة بدأت تجذبني بشدة. منذ

فترة، بدأت ذاكرتي في الموت التدريجي. لم أعد أذكر معظم الأسماء. حتى حكاياتي، قد أنسى قِسطًا كبيرًا من أحداثها مع الوقت. تحمستُ لفكرة تدوين بعض القصص والمواضيع قبل أن أنساها ثم أموت وتموت معي.

قررتُ أن أُجرِّب. زُرت تلك المكتبة القديمة بشارع ٩. اشتريت أكوامًا كثيرةً من الورق، مع الكثير من الأقلام المُلونة. تبًّا لهذا الزمن، دفعتُ مائتين من الجنيهات ثمنًا للورق والأقلام. عجزتُ عن حمل الورق ولعنتُ ذلك الحماس المفاجئ الذي تجاوز قدرتي المادية والعضلية. بالضبط كحماسي عندما أرى فتاة شابّة جميلة فاتنة بالنادي ثم أنتبه أنني عاجِزٌ عن الإعجاب بها.

استوقفت سيارةَ أُجرة وأنا ألعن عَجْزي عن مشي مسافة لا تزيد عن كيلومتر واحدٍ بسبب ثقل وزن الورق. عرفتُ يقينًا أنني - وكالعادة - سأتشاجر مع السائق الذي سيطلب مني عشرة جنيهات. في شبابي كنت أستقل سيارة إلى الإسكندرية وأعود إلى القاهرة آخرَ الليل بنفس الجنيهات العشرة. ليست نفسها بالضبط، فالأخرى كانت أكبرَ شيئًا ما. كل شيء وقتها كان أكبر. قررت أن أتفادى الجدال مع السائق لأنني مُتعبٌ، فدفعتُ له الجنيهات العشرة.

في بداية الأمر ظننت أنني سأجلس إلى مكتبي وخلال أيام ستكون بين يدَيَّ عشرات القصص والمقالات. إلا أنني بعد أسبوع لم أكتب سطرًا واحدًا. امتلأت سلَّةُ المهملات بالورق الممزَّق والمطوي والمهروس إن جاز

لي التعبير. بالطبع سيجني جامعُ القُمامة ثروةً من تجميع الورق من عندي لإعادة استخدامه. سيُعيد بيعَ ورقي الممزق لإعادة إنتاجه، ومن ثَمَّ بيعه مرة أخرى للمطابع ليطبع عليه كتب غيري. بدلًا من أن أكتب قصصي، فهأنذا أُموِّلُ صاحبَ المطبعة بورقٍ حديث، استخدام طبيب. للعلم فأنا لستُ طبيبًا، ولكن القافية حكمتْ كما يقولون. أنا مُهندس معماري.

ها قد أصابتني مُعضلة توقُّف الكتابة التي أصابت مِن قبل أكبر الكُتاب في العالم. الفارق أنها أصابتهم بعد كتابة أعمال هامة وعظيمة، أما أنا فقد أصابتني مبكرًا، قبل أن أكتب أعمالًا هامة وعظيمة أيضًا!

٢

مُصطفى

نصحني وجدي بالكتابة!

أعرف أنني أخبرتُكم بهذا من قبل. لكنني أقصد أنه نصحني مجدَّدًا بتكرار المحاولة بعد فشلي على مدى أسابيع في أن أكتب صفحةً واحدةً. ولكن لنفترض أنني نسيت وكررت نفس العبارة، فأرجو ألا تُلقوا باللوم عليَّ؛ فأنا شاب في الخامسة والسبعين من عمره، وأعاني أحيانًا (أو غالبًا) من مشاكل في الذاكرة والتركيز.

منذ فترة بدأت أرتبك في صلاتي فلا أدري أصليتُ ثلاث أم أربع ركعات. أما الآن فأنا أحيانًا أنتهي من صلاتي ثم أسأل نفسي: هل صليتُ؟ ثم هل صليت الظهر أم العصر؟ لو تبيَّن لي أنه العصر فغالبًا أعجز عن تذكُّر صلاة الظهر كلها.

عجيب أمر تلك الذاكرة! والله إني أذكر وجوه وحكايات وتفاصيل كثيرة حدثت منذ ستين سنة أو يزيد، بينما لا أذكر ما قاله لي الحارسُ منذ دقائق على الباب. أنا أصلًا لا أذكر اسم الحارس الذي أحكي لكم عنه (يُمكن أيضًا تعديل هذه الفقرة لاحقًا عندما أتذكر اسمَ الحارس أو ما أخبرني به قبل قليل). المهم أنني بدأت الكتابة أخيرًا. أما مَن دفعني أخيرًا للكتابة فهو «كامل الحلاق».

بالفعل لم أجد ما أكتب إلى أن جاء اليوم الذي تغيَّر فيه يومي فجأة. استيقظت من نومي مبكرًا كالعادة. أدَّيت صلاة الصبح في موعدها وقمت لإعداد الإفطار مستمتعًا بترتيل القرآن من إذاعة القرآن الكريم. بعد تناول إفطاري المعتاد، أدَرْتُ مؤشر الإذاعة قليلًا ما بين صوت العرب والشرق الأوسط وغيرهما. بعدها أخرجت «شريط كاسيت» من أغاني مُطربتي المفضلة «فيروز»، وأعددت قهوتي على أنغام رائعتها الخالدة «أنا لحبيبي». دائمًا ما تأخذني «فيروز» بصوتها لسنوات شبابي. قبل أن يسألني أحدٌ، نعم ما زِلتُ أحتفظ بجهاز كاسيت من ماركة «ناشونال» وعندي شرائط كاسيت لفيروز وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ وغيرهم. أحمد الله أن الجهاز يعمل بكفاءة إلى الآن.

جلستُ جلستي الصباحية المعتادة في شُرفَتي مع فنجان القهوة وصوت فيروز والجريدة اليومية. محظوظ مَن عنده شُرفة تطل على أحد شوارع المعادي الخضراء الهادئة. هناك يختلط صوت فيروز مع صوت العصافير. بينما أنعم ببعض أشعة الشمس ورشفات القهوة. لحُسن حظي أن الصحف اليومية ما زالت تصدر على استحياء. ما زلت أقرأ المقالات وأتحسس أخبار أبناء جيلي في صفحتنا الخاصة؛ صفحة الوفيات. كثيرًا ما قرأت نعيًا لصديق قديم، أو زميل دراسة، أو قريب لأحد معارفي. قراءة هذه الصفحة صارت من طقوسي اليومية مع الأسف.

ارتديت ملابسي استعدادًا للذهاب للنادي كالعادة. نظرتُ لنفسي في

المرآة ففوجئت بشعري الأبيض وقد ازداد طوله جدًّا دون أن أشعر. قررت أن أُغير من خط سَيري اليومي وأذهب لصديقي والحلاق الخاص بي منذ خمسين سنة (كامل).

صالون «كامل» للحلاقة لا يزال في نفس مكانه بشارع ٩ بالمعادي منذ ما يقرب من نصف قرن. أذكر أنني بدأت أُقُصُّ شعري مع «كامل» منذ كان ثمن الحِلاقة وقتها خمسة قروش. تحولت لخمسين قرشًا في الستينيات ثم إلى جنيه كامل في السبعينيات. أذكر أنني دفعتُ خمسة جنيهات في الثمانينيات وعشرة في التسعينيات وعشرين بعد سنة ٢٠٠٠. إلى أن صرت أدفع الآن ما يقرب من ثلاثين جنيهًا. كامل يُقسم لي إنه الأقل سعرًا في المعادي. أخبرَني مرة أن هناك مَن يحلق شعره بمائة جنيه أو أكثر. يقول لي إنه يقص شعر العريس ويحلق له لحيته بمائتَي جنيه. كامل هذا نفسه تزوج ودفع المهر والشبكة واستاجر بيته، كل ذلك بمائتَي جنيه. وبالمناسبة، فهو لا يزال يسكن في نفس البيت ويدفع نفس الإيجار إلى الآن: سبعة جنيهات مصرية.

صليت الظهر بالبيت ومشيت إلى صالون كامل آمِلًا في قَصّ شعري لأبدو أكثر وسَامةً. وجدت الصالون مغلقًا. لم يكن اليوم يوم الاثنين. سألت الحارس فقال لي إن الصالون مغلقٌ منذ يومين. شعرت بالقلق على «كامل». لا أذكر أنه أغلق الصالون بالأيام. ربما ذهب في عطلة مع أحد أبنائه؟ لا أظن ذلك. لو فعل لعلَّق لافتة على باب الصالون أو لأخبَر

الحارس. للأسف ليس عندي رقمه الخاص. عندي فقط رقم هاتف الصالون الأرضي. ذهبت للنادي يومها وأنا مُشتَّت الأفكار وشعر الرأس على السواء. أرجو ألا يكون مكروهُ قد أصابَ كامل. غريب جدًّا هذا الشعور. أعرف كامل منذ خمسين سنة والآن فقط أحسست أنه جزء من حياتي. جزء هام من تاريخي. فجأة ودون مقدمات شعرت بأنه صديق قديم عزيز. في لحظة واحدة تغيَّر شعوري ناحية الرجل لقلقٍ حقيقيٍّ فظللت واجمًا طوال اليوم.

تكرَّر الأمر ليومين إضافيين حتى هممت أن أطلب من الحارس عنوان بيت الرجل. كدتُ أن أُجَن. في اليوم الرابع رقص قلبي عندما وجدت الصالون مفتوحًا تفوح منه رائحة كولونيا ٥٥٥ القديمة وصوت أم كلثوم من مُسجِّله القديم. تعجب كامل جدًّا عندما دلفت للمحل بسرعة واحتضنته. لم أفعل ذلك معه قَط من قبل. قلت له: ظننتك قد تُوفيت يا رجل. قال لي: والله أنا الذي ظننتُ أنك تُوفيت، لم أرك منذ شهر وكدت أن أترحم عليك. ضحكنا معًا غير أن كلامه حملَ جانبًا مريرًا. بالفعل فعُملاء كامل كلهم من سني وعددهم صار في تناقُص مستمر. وبالطبع لا يوجد شابٌّ في المعادي سيقص شعره عند هذا الصالون القادم من أعماق القرن الماضي.

بمجرد أن تخطو بقدمك اليمنى في الصالون فأنت تعود للوراء أربعين سنة على أقل تقدير. الصور كلُّها بالأبيض والأسود. صور لنجوم الفن في السبعينيات. كرسي واحد متهالك للحلاقة وهو قديم جدًّا. ماكينة قص

الشعر اليدوية لقص الجوانب والشعر من الخلف. يجزم وجدي أن الحلاقين الآن يستخدمون ماكينة مشابهة لكنها تعمل بالكهرباء. لا أفهم ما دخل الكهرباء بحلاقة الشعر!

هناك أيضًا تلك المرآة التي لا تكاد ترى فيها وجهك، أغاني أم كلثوم، والبودرة القديمة التي لم يعد يستخدمها أحد. كل هذه من معالم المكان القديم المُحبَّب لنفسي جدًّا. الطريف أن فترة قَص شعري تتناسب تناسبًا طرديًّا مع عُمْر كامل. صار الآن يقص شعري في ساعة، بعد أن كان يحتاج نصف ذلك الوقت فقط. ولكن أين لي بساعةٍ جميلةٍ مع صديقٍ قديم وأغاني أم كلثوم الجميلة أخرج بعدها كشابٍّ وسيم بعد أن يضبط لي كامل السوالف ويهذب شعري ويختم بالبودرة والكولونيا؟

يومها عُدت إلى بيتي بعد الحلاقة وأنا أشعر بالسعادة. صديقي بخير، وهذا أهم شيء. عُدت أغني لنفسي: «كامل الحلاق حلق لي»، على وزن أغنية عبد الحليم حافظ الشهيرة «كامل الأوصاف».

على مدى سنين تغيرت المعادي من حولي. هُدمت فيلَّات، وبُنيت بنايات أغلبها قبيح. راحت الدنيا التي أعرفها تتلاشى من حولي ومعها ذكريات كثيرة اختفت من ذاكرتي. شعرت أنه قد يأتي عليَّ يومٌ لا أذكر فيه شيئًا. الكتابة قد تحفظ ما تبقى في ذاكرتي المحتضرة من جمالٍ قديمٍ. قررت أن أكتب على الورق ما قد يُمحى غدًا من الذاكرة. يومًا ما قد يقرأ أحفادي هذه الأوراق ليعرفوا جدهم. وقد أقرؤها أنا أيضًا لأتذكَّر مَن أنا ومَن كنت حين

تعود ذاكرتي كما بدأت، ورقة بيضاء.

يومها كتبت. جلست إلى مكتبي ومعي أوراقي البيضاء (أو ما تبقى منها)، ووجدت نفسي أكتب عن كامل وصالونه وتاريخي معه. تذكَّرت الكثير من المواقف الجميلة مع الرجل وفي صالونه. كتبت عنوانًا لمقالي أو قصتي: «في صالون الحلاق، كانت لنا أيام». استعرت الاسم من اسم كتاب جميل لأنيس منصور، فلو أنني أنا أنيس منصور في هذه الاستعارة، فكامل هو العقاد نفسه!

في اليوم التالي في النادي حكيت لوجدي وسعيد ومجموعة من أصدقاء الطاولة أنني أخيرًا استطعت الكتابة بالأمس، وأن الإلهام هبطَ عليَّ بعد زيارة صالون كامل. ضحك الجميع وأخذ وجدي يقرأ ما كتبته سريعًا. وجدي يعرف كامل جيدًا، فهو من الزبائن الدائمين، على الرغم من تساقط شعره مؤخرًا. ظل يُحول نظره بين وجهي وسطوري مع ابتسامة غامضة. تلهفتُ لسماع رأيه فيما كتبت لكنه لم ينطق. عندما انتهى من القراءة نظر لي في إعجاب. سألته في ترقُّب شديد: ما رأيك؟

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

رفع عينيه ونظر إلى شعري وأجاب بتلقائية:

- نعيمًا!

٣

مُصطفى

أُعجِب وجدي يومها بما كتبت، بل أُعجِب بكل كلمة كتبتُها حرفيًّا. أنا هنا أقصد الخط. أنا خطَّاطٌ منذ ستين سنة. كنا في الخمسينيات ندرس الخط العربي. تعلمتُ في كراسات الخط أنواع الخطوط كلها. أبي أيضًا كان خطَّاطًا، كتب بيديه معظم لافتات المعادي في الخمسينيات والستينيات إلى أن مات وأنا شاب صغير.

أحببت الخط والفن على يدَيْ أبي. شاركت بمسابقات الخط العربي منذ المدرسة الابتدائية وفزت كثيرًا. تعلمت استخدام أقلام الخط العربي المختلفة. على مدى حياتي رسمت العديد من اللوحات الفنية بمختلف الخطوط. عرف سكان المعادي قديمًا أبي فأطلقوا عليه لقب «خطَّاط المعادي». ما زال هناك خطَّاطون بالمعادي إلى يومنا هذا، ولكن المهنة تحتضر بين يدَيْ برامج الكمبيوتر والمطابع الحديثة.

وجدي يعرف جيدًا موهبتي في الخط واللوحات الخطية، ولكنه تعجَّب أنني ما زلتُ أمتلك تلك المهارة رغم اهتزاز القلم في يدي بسبب السن. أبدَى وجدي اندهاشه من دِقة خط النسخ الذي نسخت فيه ذكرياتي مع كامل الحلاق لدرجة أن الصفحة بدت كأنها مطبوعة بعناية ودقة شديدتين. الكتابة بهذا الخط الجميل مُرهِقة بالنسبة لشخص في سني، إلا إنها تبقى

متعةً عظيمةً يفتقدها الكثيرون. لم أعمل بالخط كأبي، ولكني عملت بالفن.

أنا مهندس معماري، تخصصت في تصميم الفيلّات قديمًا بالمعادي، وبعدها صمَّمت العديد من المباني ما بين القاهرة وجَدة وأبو ظبي والكويت ودبي. الرسم المعماري فنٌّ عظيم، لا أقول ورثتُه عن أبي أو جدي، ولكن عن جدودي الأوائل قدماء المصريين. كل مبنى أو بيت هو قطعة فنية كلوحات الخط العربي. كي أصمم أي مبنى اعتدت قضاء الأسابيع في دراسة المبنى واستخداماته والبيئة المحيطة به. في الخمسينيات والستينيات كانت المعادى أجمل وأرقى أحياء مصر كلها؛ ولهذا فأنا حزينٌ على ما صارت له دُرَّة أحياء مصر. عندما أمشي يوميًّا بين بيتي والنادي أتخيَّر شوارع بعينها لكيلا تجرح عينيَّ كتلُ الأسمنت القبيحة.

كم أتمنى أن أعود للعمل، ولكن مهنتي الآن تغيرت كثيرًا. في الماضي، استخدمنا الأقلام والمِسطرة على حرف T واللوحات في الرسم. ما زلت أحتفظ بكل ذلك في بيتي إلى الآن. أما مهندسو اليوم، فالكمبيوتر ببرامجه العجيبة يقوم بالرسم بدلًا منهم. اللعنة على هذا الكمبيوتر الذي جاء ليقضي على كل ما هو يدوي وجميل. كم هو محظوظ «كامل» أن الكمبيوتر لا يقوم بالحلاقة للبشر. على الأقل استطاع كامل القيام بفنه (والحلاقة فن بالتأكيد) بيدَيْه إلى اليوم.

من وحي ما كان وما هو كائن كتبت. من بقايا ذكريات قديمة كتبت.

كتبت عن أبي، عن نشأته في هذه الضاحية العريقة. هذه الضاحية التي

تقع فيها محميات طبيعية عُمرها أقدم من عُمر البشر. كتبت عن الفيلّات القديمة، عن الأشجار الضخمة المعمرة كثيفة الفروع كثيرة الأوراق القائمة في كل شوارع الضاحية منذ مائة وخمسين عامًا. كتبت عن الجيران، عن السيارات القديمة، عن صالون كامل وزبائنه عبر السنين.

كتبت عن نادي المعادي ونادي اليخت. نادي المعادي الذي كان يومًا جنات من ملاعب للجولف والكروكيه وإسطبلات للخيل.

كتبت عن كنيسة العذراء مريم ومعبد مائير عنايم اليهودي ومسجد الفاروق. وعن المقاهي والمخابز والمطاعم والصيدليات القديمة. كتبت عن شارع ٩.

ومن مكاني هذا كتبت عن ترعة قديمة جرت هنا أمامي فيها مياهُ النهر الخالد لتروي الأراضي الخضراء على الجانبين. ترعة اختفت ورُدمَت فبقي فوق المكان عدة جسور صغيرة شهدت يومًا لقاءات حب كثيرة. كتبت عن جسر المشاة الخشبي القديم وأشجار الكافور العملاقة المعمرة ذات الرائحة المميزة على جانبي ترعة الخشاب.

أعادت الكتابة الروح لي مرة أخرى. فأنا أكتب وأراجع وأصحِّح اللغة ثم أنسخ القصص بخط النسخ العربي الجميل. تسابق الجميع في النادي على قراءة ما أكتب بشكل مُستمر. سُطوري أعادت الجميع إلى الزمن الجميل. أخرجتهم من غرفة الطاولة الصغيرة لمقاهي المعادي القديمة. حكوا لي

المزيد، وكتبت بعضًا مما حكوا فتكومت الأوراق لديَّ، وفجأةً وجدت أن عندي ما يقارب المائتي ورقة وفيها العشرات من المقالات والقصص.

وكما نصحني وجدي بالكتابة فاجأني يومًا بما لم أفكر فيه مطلقًا...

- لمَ لا تنشر هذه الذكريات الجميلة في كتاب؟

لا أعرف شيئًا عن النشر ولم أفكر فيه من قبل. لم أتخيل أصلًا أن يتصدر اسمي غلاف كتاب. أعجبتني الفكرة وعُدت إلى البيت كطفلٍ اشترى لعبة جديدة. أفكر في اسمٍ لكتابي وأصمم غلافًا خطيًّا له وأكتب اسمي عليه بفخر. ولكن، مَن سيهتم بقراءة ما أكتب.. والأهم.. كيف أنشر هذا الكتاب؟

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

٤

مِنة

مساء الخير على أجمل متابعين وأصدقاء. هل تسمعونني بوضوح؟ دَعوني أقرأ رُدودَكم. الحمد لله الصوت جيد. كم عددُنا الآن؟ جيد جدًّا، لنبدأ البث.

معكم «مِنة صالح»، صديقتكم كما أحب أن أطلق على نفسي. منذ أن أطلقت قناتي على «يوتيوب» أو صفحتي على «فيسبوك» وأنا أعتبر كل المتابعين هنا أصدقاء مُقربين مني جدًّا. لا أتخيل حياتي دونكم. في الفترة الماضية احتجبتُ عن الظهور في فيديوهات لفترة. تلقيت الكثير من الرسائل منكم تسأل عني وعن أحوالي. وبالفعل فقد عانيت من تجربة صعبة على أي بنت في سِني. أريد الليلة أن أروي لكم هذه التجربة من قلبي لتكون عبرة وعظة لكل بنت وصديقة من المتابعين. أعلم جيدًا أن ما سأرويه قد لا يعني الكثير للمتابعين من الأولاد؛ ولهذا سأعتذر لهم مقدمًا. الأمر هام وصعب للبنات، وفي الأغلب لن يهتم الشبابُ بالموضوع. فللشباب أقول: ابقوا معنا في هذا البث إن أردتم، فقط عِدُوني أن تتفهموا الأمر وأهميته لنا كبنات وألا تسخروا من مشاعرنا واهتماماتنا. سأتكلم اليوم في موضوع يؤرق كل البنات. تجربة أعتقد أننا كلنا مررنا بها من قبل. سأعرض المشكلة والحل، فابقوا معي لآخر البث.

آسفة أطلت عليكم كثيرًا في المقدمة، ولكن دعوني الآن أحكي لكم الموضوع منذ البداية. منذ ما يقرب من شهرين وفي نهاية الصيف، سافرت كما تعلمون إلى الساحل الشمالي. دُعيت في إحدى الليالي لحفل عند إحدى قريباتي. وهناك لفت نظري شاب وسيم، علمت من قريبتي أنه مصور موهوب. لن أستطيع أن أبوح باسمه، ولكني أحسب أنه سيستمع لتسجيل البث لاحقًا. المهم أن عينَيْنا تلاقتا سريعًا. تعارفنا وطلب مني أن يُصورني في اليوم التالي. ليلتها أخذ يحدثني عن عينَيَّ وعن جمالي وكيف يتخيلني في صُوره.

وبالفعل، في اليوم التالي التقينا وصوَّرني العديد من الصور. بعث لي نُسخًا منها على تلفوني. وتعددت لقاءاتنا في الأسابيع التالية. ظننت أنني أخيرًا وجدت الظَّهْر والسَّنَد والحبيب.

أحيانا تُقابل شخصًا ما يومًا ما وتشعر أنك تريد أن تقضي عمرك كله... دون أن ترى ذلك الوغد الحقير مرة ثانية!

لكيلا أطيل عليكم، انهار كل ذلك سريعًا حين علمت بالمصادفة أنه يُقابل فتاة أخرى أعرفها جيدًا. لعلها تستمع الآن لي. أريد أن أشكرها على فضح هذا المُخادع. تخيلوا أنه حين قابلها، قال لها نفس الكلمات. مدح عينَيْها وجمالها وطلب تصويرها. يبدو أنني لم أكن الأولى ولن تكون هي الأخيرة بكل تأكيد.

قطعت علاقتي به بالكامل. لم أرد على مكالماته ورسائله، ويبدو أنه اطمأن لهذا سريعًا فتوقف عن المحاولة؛ مما أصابني بحُزن مُضاعَف. نعم، لم أستطِع الرد. ليته استمر في المحاولة لفترة أطول. لربما غفرت له لو أصر على أن نتحدث. ولكنه على أي حال لم يفعل وتركني مرتبكة ومكتئبة. توقفت عن الطعام، ربما لاحظتم أنني لفترة لم أعُد أشارككم صوري أو نتحدث معًا مثلما تعودنا. حدث ذلك منذ أسبوعين تقريبًا.

دعوني أرى مَن منكم يسمعني الآن. أتمنى من البنات أن تتابعني لأن ما سأرويه الآن مهم جدًّا. أحدهم يسأل عن أحوالي الآن. أنا الحمد لله بخير وتجاوزت الأمر كله تقريبًا، وإلا لما واتتني الجرأةُ لأحكي لكم كل هذا. أشكر لكم شُعوركم الجيد، أنا أيضًا أحبكم جدًّا، فأنتم لي كأهلي وإخوتي. كم أسعد عندما أقابل أحدَكم في أي مكان فيقول لي إنه من مُتابعي قناتي أو صفحتي الشخصية. أرى الآن أن العدد في تزايد، هناك حوالى عشرة آلاف يُتابعون هذا البث. الصفحة تعدت رُبع مليون مُتابع، وتمنيت أن يشاهد هذا البثَّ المزيدُ من المتابعين، وبخاصة البنات.

دعوني أعود إلى الموضوع الرئيسي. أين توقفت؟ نعم، نعم، تذكرت الآن. أُصِبت بالاكتئاب، وظللت حبيسة البيت لأسبوع كامل، بكيت طوال الليل لكي أنام. العجيب أن الموضوع انتهى تمامًا بعد أسبوع، أحسست بعد هذا الأسبوع أن الأمر كله مرَّ سريعًا ولم يكن يستحق هذا الحزن العميق والذي استدعى معه أحزانًا أكبر وأعمق طوال الأسبوع.

بعد هذا الأسبوع تلاشى الأمر كأن لم يكن. خرجت بعدها مع إحدى صديقاتي وعادت الابتسامة إلى وجهي مرة أخرى. لعلكم الآن تظنون أن رسالتي الهامة للبنات تتعلق بهذه التجربة السريعة الأليمة! أو أنها تتعلق بحُسن اختيار الشخص المناسب قبل أن نُطلق العنان لمشاعرنا. لا والله، أولًا المشاعر في أغلب الأحيان تسوقنا ولن نستطيع أن نتحكم فيها. وثانيًا مهما قلت فستحدث تلك التجارب حتمًا، ستظل البنات تفتح قلوبها وتمنح مشاعرها. قدَرُنا أن نخطئ مرات لعلَّنا نصيب في مرة، وستكون تلك المرة- إن حدثت- هي الأهم، بل هي كل شيء، هي الحياة لكل واحدة منا.

أرى أنني أطلتُ عليكم، وللآن لم أُفصِح عن الموضوع الهام جدًّا. الموضوع الذي من أجله رويتُ لكم كل هذه الأحداث. فمِن رَحِم المُعاناة تأتي المنحة.

بعد هذه التجربة نظرت إلى نفسي في المرآة وهالني ما رأيت. تحت عينَيَّ وجدت هالاتٍ سوداء قاتمة كئيبة جعلتني أشعر أنني عجوز، بينما أنا ما زلت في أوائل العشرينيات من عمري. كيف لم أنتبه لوجهي طوال هذه الفترة؟! كيف تركت نفسي لهذا الحزن الذي أظهر تلك الهالات؟! عندما خرجت مع صديقتي ولاحظت شكل عينَيَّ (على الرغم من محاولة إخفاء السواد بكِرِيم أساس). أصرَّتْ صديقتي على أن تصحبني لأحد محلات أدوات التجميل المشهورة واشترت لي «كِرِيم» خاصًّا لعلاج هذه الهالات السوداء تحت العين. تخيلوا أن هذا «الكِرِيم» المُعالج قضى تمامًا على هذه

الهالات في ثلاثة أيام كأن لم تكن. مفعولُه سِحريٌّ منذ المرة الأولى.

جربوا «كِريم سُوزا» السحري وستلاحظون الفرق مباشرةً بعد أول استخدام. دعوني أريكم إياه. هذا هو «الكِريم» السحري، أنصح به بشدة كل البنات. بعد البث مباشرة سأكتب لكم تعليقًا به اسمُ الشركة المنتجة والمكان الذي اشتريته منه. وهناك مفاجأة أخرى، سأترك لكم في التعليق كودًا لخصم ٢٥٪ لجميع المتابعات. كالعادة سعيدة جدًّا بوجودي معكم في هذا البث. سأنتظر رأي البنات في «الكِريم». أراكم قريبًا.

٥

مِنة

«تلقيت الكثير من الرسائل منكم تسأل عني وعن أحوالي».

«أراهن أنكِ تلقيتِ ثلاث رسائل على الأكثر. بل إنني لا أصدق موضوع «الكِريم» كله. أنتِ أصلًا لم تذهبي للساحل الشمالي هذا العام!».

كان ذلك زياد يُداعبني كالعادة ويسخر من عباراتي أثناء تسجيل الفيديو. انتهيت لتوِّي من البث المباشر.

زياد شخص ودود ولطيف ومهم جدًّا في حياتي. أولًا، هو جارٌ لي منذ زمنٍ بعيدٍ في نفس البِناية بمدينة نصر. ثانيًا، هو مُخرج شاب، له عدة محاولات مع بعض الأفلام القصيرة. ثالثًا، وهو الأهم، هو الذي أقنعني أن أنتقل من «إنستجرام» و«فيسبوك» إلى يوتيوب، وبفضل مساعداته في تصوير ومونتاج الحلقات نجحت قناتي على يوتيوب وصار عندي آلافُ المتابعين فبدأت مؤخرًا في تلقِّي بعض المبالغ البسيطة من يوتيوب. تلك المبالغ التي آمل أن تُصبح أكثرَ بكثير مستقبلًا. أرى أن تصوير بعض الفيديوهات يساعدني من ناحية، وهو يُعَد إعدادًا وتدريبًا جيدًا لزياد أيضًا حتى تأتيَه فرصة إخراج جيدة.

هذه الأموال القليلة التي أتلقاها من «يوتيوب» أو من إعلان «كِرِيم» مثلًا

مهمة للغاية. ليس لأنني من أسرة فقيرة، بل على العكس فليس عندنا أي مشكلات مادية. ليس أيضًا لأنني أتطلع لتحقيق ثروة كبيرة. السبب بسيط، أريد أن أثبت لأمي وخالاتي وحزب «الطنطات» من أصدقاء أمي أن العالم قد تغيَّر.

هم يرون أن الفتاة يجب أن تسير حياتها كالآتي: طفلة، حضانة، مدرسة، جامعة، وظيفة جيدة، خطيب، زوج، أولاد، تزويج الأولاد، أحفاد، فقبر. أي إضافة أو تعديل لهذا التسلسل يعني الإلحاد في نظرهم! فمثلًا لو أضفنا خطوبة ثم فسخ خطوبة مثلًا، فهذه الخطوة غير موجودة في الكتالوج الأصلي للفتاة الجيدة من منظورهم. وبالتالي إضافة أي فسخ أو طلاق يعني أن الفتاة تُعاني من مشكلات كبيرة!

وللعلم، تعريف كل مرحلة أيضًا غير قابل للتغيير. مثلًا، تعريف الوظيفة في قاموس حزب «الطنطات» انه عمل في مكانٍ جيدٍ من الساعة التاسعة للساعة الخامسة كحد أقصى، وللوظيفة راتب ثابت يزداد أول العام!

في العالم الآن الآلافُ من الشباب الذين يعملون بالبرمجة أو التصميم أو الترجمة، أو غيرها من الوظائف الحُرة أو التي تعتمد على الإنترنت. والعمل في هذه الوظائف قد يكون من البيت أو من أي مكان، والدخل يتغير فيزيد أو يقل. ولكنه على المدى البعيد يزداد بالطبع. أمي لا تعترف بكل هذا وتعتبرني عاطلة عن العمل. دخلي البسيط هو دليلي لأمي ولحزب «الطنطات» أنني أعمل وأنني أحقِّق دخلًا، وبالطبع لي الآلاف من

المتابعين. أمي لا ترى أي ضرورة لوجود متابعين إلا إن كانوا أزواجًا مُحتملين فقط. يعني مَن ينوي التقدم لي فليتابعني، أما الآخرون فلا ضرورة لهم. جيل أمي له منطق عجيب!

ومن كتالوج «الطنطات» صفحة ٤ المفروض أن تتم خِطبتي سريعًا. كل «تأخيرة» هنا ليست فيها أي خيرة. يترتب على ذلك نظرات وهمزات ولمزات من «الطنطات» مع ضغط شديد من أمي. لست رومانسية، لا أعترف بوجود الحب الحقيقي الذي يعيش للأبد. ما يُسميه البعض «الحب» هو علاقة عادية مثلها مثل الصداقة أو الزمالة. علاقة مؤقتة ستنتهي يومًا ما.

كان زياد مُحِقًّا، فكثيرًا ما أبدأ البث المباشر على فيسبوك أو إنستجرام بعبارة معتادة: «تلقيت العشرات من الرسائل التي تسألني عن...»، وفي الحقيقة أنني تلقيت رسالة واحدة، بل إنه في بعض الأحيان لم أتلقَّ شيئًا على الإطلاق ولم يسألني أحدٌ أيَّ سؤال. ولكن هذا هو عملي الذي أحبه وأؤمن به. هو يعتمد على التعميم والتكثير، وبالتالي: التأثير. إن أردت أن أصبح مؤثرة، فالقاعدة الأولى منذ اليوم الأول: أن أقنع الجميع بثقة أنني مؤثرة بالفعل. يجب أن يقتنع الجميع أنني مشهورة بالفعل، فإن لم يعرفني أحد فهي مشكلته هو كونه غيرَ مُتابع للمؤثرين والمشاهير من أمثالي. بالطبع لا أقول أيًّا من ذلك، ولكنني أجعل الآخرين يشعرون بذلك بهدوء وبراعة.

بعض المشاهير يخافون من الحسد. فترى النجمة الكبيرة تخاف أن تُظهر حبَّها لزوجها، أو صورَ طفلها أو سيارتَها علنًا. أما أنا ومَن هُن مثلي، فلا نخاف الحسد؛ لأننا ببساطة لا نملك نصف ما ترانا نملكه على صفحاتنا. أنا في الحقيقة، بيني وبين نفسي فتاة عادية جدًّا. على قدرٍ بسيط وعادي من الجمال. من أسرة عادية تنتمي للطبقة المتوسطة. أعيش مع أمي بشقة عادية في مدينة نصر. أقود سيارة كورية صغيرة ومستعملة، استدنتُ من الجميع لأشتريها في أواخر سنوات دراستي الجامعية. تخرجت العام الماضي فى كلية الشعب الأولى؛ كلية التجارة. لستُ خريجةَ كلية خاصة ولا درست بالقسم الإنجليزي. الخلاصة أنني في الحقيقة فتاة عادية جدًّا.

أما المؤثرة الشهيرة «مِنة صالح» فهي على خلاف كل ذلك. هي مشهورة، تلبسُ من أفخر الثياب، تسهر في أغلى الأماكن. جميلة جدًّا وتتمنى أن تعرفَ البنات أسرارَ جمالها. تقود سيارة خاصة لا تظهر على صفحاتها، ولكن الجميع يعتقد أنني أقود سيارة مرسيدس على أقل تقدير. فخورة أنني استطعت أن أرسم لنفسي هذه الشخصية الخيالية وأنا شخصيًّا أعتبرها مَثلي الأعلى. أحاول دائمًا أن أكون «مِنة صالح» التي يعرفها الجميع. ذلك يساعدني جدًّا على تطوير شخصيتي وبناء طموحاتي الكبيرة التي لا حدودَ لها.

الفيديو الذي انتهيت من بثِّه منذ قليل هو إعلان مدفوع لأحد محلات أدوات التجميل. «الكِرِيم» الذي أعلنت عنه سوف يشتريه العديد من

الفتيات في الأيام التالية بكود خاص بي؛ مما سيؤهلني للحصول على مبلغ عمولة جيد. دخلي بسيط ولا يكاد يكفي مصاريفي الشخصية. بعض زميلاتي في الدراسة التحقنَ بالعمل في شركات خاصة فحصلن على رواتب شهرية مُجزية بالآلاف. أمي أيضًا تريدني أن أكون نُسخة مكررة منهن، ولكنني أحاول إقناعها بأن ما أفعله الآن قد تأتي نتيجته بعد القليل من الصبر، وستكون أضخم من تصورات الجميع. قد أُصبح مُمثِّلة، أو عارضةَ أزياء، أو على أقل تقدير، سأتزوج رجلَ أعمال مشهور وأقود سيارته المرسيدس. لطالما حلمت بأن أُذيع بثًّا مُباشرًا لي وأنا أقود سيارة فخمة. زميلاتي من المؤثرات يفعلنَ ذلك دائمًا.

«عندي لكَ مُفاجأة بمليون جنيه».

هكذا نجح زياد بجذب انتباهي مُجددًا. عجبت وأنا أسأله بدهشة شديدة عن هذه المفاجأة. برقت عينايَ كماستَيْن وأنا أتخيل المليون جنيه. أو شنطة كبيرة من الأموال، بل سيارة فارهة، بل شقة جديدة، أم هو مُجرد شيك بنكي بالمليون جنيه؟

تسارعَتْ المشاهدُ في رأسي، هل هو عقد إعلانات؟ هل سأقوم بتقديم برنامج على قناة فضائية شهيرة من إخراجه؟ نفى زياد كل ذلك وفاجأني بما لم يخطر على بالي قَطُّ!

٦

مُصطفى

يعيش ابني «يوسف» في كندا، وتعيش ابنتي «شيرين» مع زوجها في دُبي. ولي من الأحفاد اثنان أُحبهما وأفتقدهما دومًا. حفيدتي الكبرى «نادية» على وشك الانتهاء من دراستها الثانوية بدُبي، وقد تعود إلى القاهرة للدراسة في العام المقبل. كم أتمنى أن تقيم معي لأتعرف عليها بشكل أكبر الآن وبعد أن صارت فتاة. يومًا ما كانت تلك الحفيدة مُقربة جدًّا مني، هي حفيدتي الأولى، وأقامت معي ومع جدتها في فترة طفولتها الأولى. ومرت السنوات وسافرت مع والدَيْها إلى دُبي، ومع الوقت قل التواصل بيننا، ولكنني أفتقدها بشدة. كم سعدتُ عندما عرفت أنها قد تُواصِل دراستها الجامعية بالقاهرة فتنتقل إلى العيش معي. أما حفيدي الآخر «نوح» فقد وُلِد في كندا. أتمنى أن أقضي معه وقتًا أطول. هو في العاشرة الآن ويُجيد الإنجليزية أكثرَ من العربية للأسف. ولكنه حفيدي وأحبه بشدة، حتى وإن كنتُ لا أعرفه جيدًا. أكتفي بمكالمات قليلة من أبنائي بين الحين والآخر. أكره المكالمات الهاتفية جدًّا، فلا أزيد عن دقيقتين أو ثلاثٍ، بعدها أشعر بالدوار وفقدان التركيز.

ومع ذلك فأنا دائمُ الفخر بأبنائي ونجاحهم في حياتهم العملية والشخصية. أحيانًا أفكر أنني لن ألتقي بأبنائي وأحفادي جميعًا مرة أخرى

بعد جنازة زوجتي الراحلة. ذلك الإحساس يُصيبني بالحزن وأشعر بمرارة شديدة بعده. حكيت ليوسف ابني موضوع الكتاب فتحمَّس جدًّا وقال لي إنه يتطلع لقراءة هذا الكتاب. أخبرني أن الكتاب سيكون هدية جميلة لأحفادي أيضًا ليتعرفوا عني وعن مصر بشكل أقرب. ازدادت الفكرةُ بريقًا في عينَيَّ.

تذكرت لقائي مع الكاتب الشاب «مُصطفى....»، يبدو أنني نسيت بقية اسمه! ولكنني على الأقل لم أنسَ أنه «مُصطفى» مثلي. كما ذكرت فقد قابلته أمام مقهى بينوس بميدان المحطة بالمعادي. ذكر لي يومها أنه يذهب هناك بشكل شِبه يومي. قررت أن أبحث عنه، لعله يساعدني في نشر ما كتبت. ذهبت إلى المقهى وسألت عنه فلم أجده هناك. عرض عليَّ الجارسون أن أشرب القهوة، أعلم ذلك الفخ جيدًا. لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين. يريدني أن أشرب من قهوتهم الفرنسية عديمة الطعم ذات الثلاثين جنيهًا. بل ثلاثون عفريتًا يركبونك أنت وصاحب المقهى.

مررت بمكتبة «ألف» بنفس الميدان، والتي تَغيَّر اسمُها مؤخرًا. قابلني شابٌّ مُهذَّب جدًّا، سألته عن أهم دُور النشر. كتب لي قائمة قصيرة من دُور النشر وأضاف أرقام هواتفهم.

هاتفتهم جميعًا. البعض لم يُبدِ أيَّ اهتمام، ولكن أحد المسؤولين عن إحدى هذه الدور طلبَ مني إرسال نسخة من العمل. طِرتُ من السعادة وأنا أسألُه عن العنوان، فإذا به يُملِيني حروفًا أجنبية جعلتني أعتقد أن مقر الدار

في لندن!

- هذا عنوان البريد؟ أي شارع أو مدينة؟

- هذا هو عنوان البريد الإلكتروني.

تبًّا لهذا الكمبيوتر ألف مرة. ها هو الآن يفعل فعلته مع مكاتب البريد أيضًا. لا ساعي بريد ولا أظرُف ولا طوابع بعد الآن؟ وهل هناك أجمل من رسالة مكتوبة بخط اليد لحبيب أو قريب؟! ماذا يريد منَّا هذا الكمبيوتر؟! قريبًا سيحلقُ رؤوسَنا وستُغلق صالونَك يا كامل!

لا أفهم الآن كيف لي أن أرسل مائتَي صفحة بخط النسخ عبر البريد الإلكتروني. ضحك «سعيد» بشدة وهو يشرح لي. يجب أن أُعطي نُسخة عملي كله لكاتب يكتب على جهاز الكمبيوتر، بالضبط ككاتب الآلة الكاتبة. هذا الكاتب سيُحول أوراقي إلى ملف إلكتروني، ويمكنه مساعدتي في إرسال الملف لدار النشر. حذرني أصدقاءُ الطاولة من تَرْك نُسخة الكتاب الوحيدة مع كاتب الكمبيوتر، بالذات في المطابع؛ حيث إن أحدهم قد يَسرق ما كتبت وينسبه إلى نفسه. نصحوني بأن أقوم بعمل صورة من العمل وأحتفظ بالأصل. وأن أجد شخصًا مؤتمنًا يُمكنه كتابة الكتاب أمامي. لم يكن الأمر سهلًا؛ فأبنائي وأحفادي كلهم بالخارج، ولا يخدمني أو يزورني إلا ذلك الحارس (الذي ما زلتُ لا أذكر اسمه) وزوجته التي تقوم بتنظيف البيت والمساعدة في إعداد الطعام أيضًا.

ذهبت إلى مكتبة قديمة لتصوير المستندات ونسخت الكتاب بالكامل وكلفني خمسين جنيهًا أخرى. سألت عامل المكتبة عن شخص يستطيع أن يكتب هذه الأوراق على جهاز الكمبيوتر فدلّني على مكان غريب أسماه «السايبر»!

- اسأل هناك عن «علي الحجَّار».

- أستاذ «علي الحجَّار» المطرب؟

- بالطبع لا، هو شاب اسمه عليّ، ولكنه مقتنع أنه فنان موهوب ويحب أن يناديه الجميع بالحجَّار.

نصحني أن أُعامِله بحساسية وأمدح موهبتَه وسوف يساعدني هذا «الحجَّار» في إرسال صفحاتي عبر الكمبيوتر.

هذا السايبر مكانٌ مُقبِض، كئيب. هو عبارة عن بدروم بارد في بِناية كئيبة مُتهالكة. السلالم كلها مكسورة. كِدتُ أقع عدة مرات وأنا أدعو على هذا الكمبيوتر بالموت وتكسير الشاشة. سألت عن الأستاذ علي الحجَّار على استحياء. أنهكني حَمْل الكتاب ونُسخته والسلّم أيضًا. الحقُّ أن الأستاذ الحجَّار أبدى أدبًا شديدًا، جاء لي بمِقعدٍ وأصرَّ أن أشرب كوبًا من العصير. وجدته شابًّا صغيرًا لا يزيد عن عشرين عامًا على أقصى تقدير. رفيع الجسد جدًّا كعُود من القصب. يرتدي بنطلونًا من الجينز الذي تبدو عليه آثار الزمن، وقميصًا مقاس طفل رضيع في الأسبوع الثالث من عمره.

رشفت رشفة من العصير وهدأت قليلًا وبدأت أشرح له المطلوب.

- الموضوع بسيط إن شاء الله، وتكلفته بسيطة، حوالي عشرة جنيهات.

- الأمر لله يا فنَّان، مع أنه مبلغ كبير ولكنك تستحق كل خير. سأعطيك خمسة جنيهات مُقدمًا، والخمسة الأخرى بعد تسليم باقي الكتاب.

رمقني بنظرة لم تُعجبني وأشاح بيده وهو يُخبرني أنه يقصد عشرة جنيهات للورقة الواحدة. لم أستوعب الأمر في البداية ثم أطرقت رأسي للأرض. فجأة بدأت أستوعب: عشرة جنيهات في مائتَي ورقة تعني ألفَي جنيه. صدمني الرقم. حاولت استمالة الأستاذ علي الحجَّار بأنني أنا أيضًا فنان مثله. يبدو أنه رقَّ لحالي وتنازل عن نصف المبلغ وطلب ألف جنيه. لم أعرف بمَ أجيب. لو كان ابني يوسف معي لما احتجت لخدمات ذلك الشاب النحيل. عندما رأى الحجَّار خطي أبدى اندهاشَه من حُسن الخط.

- هل تستطيع أن تكتبه على الكمبيوتر بخطْ النسخ مثل هذا؟

- الكمبيوتر عليه كل الخطوط، سأجعلك تختار الخط الذي تريده.

- وسوف تُراجع التشكيل وعلامات الترقيم جيدًا؟

- أي علامات تقصد؟ ترقيم وتشكيل، ما هذا الكلام العجيب؟

هنا حسمتُ أمري، الفتى لا يعرف الفصلة من الكسرة. أيُّ جيلٍ هذا؟ أهذا هو جيل الكمبيوتر؟ استأذنته بالرحيل فإذا به يخفض التكلفة المطلوبة

مرة أخرى. أنا الآن مُستعد لدفع الألفَي جنيه لأي شخصٍ مُتعلم يستطيع أن يكتب كتابي هذا على جهاز الكمبيوتر بخط النسخ. خرجت من عنده بمعجزة وعُدت إلى بيتي أفكر في الأمر، كيف لي أن أجد مَن يساعدني في هذه المهمة الشاقة؟ لم أعرف هل المشكلة في هذا «الحجَّار» أم أن هذا الكمبيوتر اللعين لا يعرف حقًّا علامات الترقيم! بعد تفكير بسيط قررت ببساطة أن أذهب إلى دار النشر لعلَّهم يقبلون بمسودة بخط يدي. أو أن أدفع لهم المبلغ نظير كتابة نصي على جهاز الكمبيوتر الخاص بهم.

٧

مِنة

«أنا أكتب كتابًا؟»، هذه هى مُفاجأة زياد العجيبة!

قال لي إن مدير إحدى دور النشر طلب منه التوسط لديَّ ليقنعني أن أكتب كتابًا موجهًا للبنات في سِني أو الأصغر. المدير رأى أن لي تأثيرًا كبيرًا عليهن، وأن عدد مُتابِعاتي يبشر بمبيعات ضخمة للكتاب.

راقتني الفكرة رغم أنها لم تخطر على بالي من قبل. كُتب ومبيعات ضخمة، شهرة أكبر مع مبلغٍ ماليٍّ جيدٍ، ولمَ لا؟ شكرت زياد بشدة وسألته متى نُقابل الناشر، أخبرني أن الناشر سيُقابلنا في أي وقت. طلبت منه أن أقابله في اليوم التالي مباشرةً.

بتُّ ليلتها أفكر في الكتاب، ماذا أكتب؟ رواية؟ كتابًا عن الموضة؟ أكتب عن العلاقات في الفترة الجامعية؟ هل أسأل المُتابِعين عن رأيهم؟ هل أُخبِرُهم أنني سأكتب كتابًا أصْلًا أم أُفاجئهم قبل النشر؟ أعتقد أن المفاجأة ستكون أجمل، وستساعدني في خلق حملة إعلانية كبيرة وسريعة للكتاب. الأفضل إذًا أن أفكر وحدي، أو أستشير زياد لعلَّه يساعدني بفكرة جديدة، أو لعلَّ الناشر نفسه يفعلُ ذلك.

في الصباح أيقظني زياد قائلًا إن الناشر سيُقابلنا في مكتبه بوسط البلد

في الواحدة ظهرًا. فَرِحتُ لأن زياد سيصحبُني في سيارته. لا أحب القيادة إلى وسط البلد. وقطعًا لن أجد مكانًا لصفّ سيارتي هناك. عاهدتُ نفسي إن حصلتُ اليوم على مبلغ كبير فلسوف أشتري بجزءٍ كبيرٍ منه هديةً لأمي. هي تستحق كلَّ ذلك بلا شكٍّ. كثيرًا ما أشتري الهدايا البسيطة لها في عيد ميلادها أو عيد الأم. هذه المرة أريد أن أشتري شيئًا بسيطًا لتشعر بأنني أعمل وأكسب من عملي هذا.

في الواحدة ظهرًا كنتُ أنا وزياد في صالة الانتظار بدار النشر بوسط البلد. جلسنا في انتظار وصول الناشر الذي تأخر قليلًا عن موعدنا. اتصل الرجل بسكرتيرته وطلبَ منها الاعتذار لنا وإعلامَنا بأنه سيصل خلال ربع ساعة على الأكثر. الجميل أنني فُوجئت أن السكرتيرة تعرفُني جيدًا، ومن المُتابِعات الجَيِّدات لما أنشر. قالت لي إنها شاهدت بثّي المباشر بالأمس.

- يبدو بالفعل أن ذلك الكِرِيم سِحريٌّ، لا أرى أي أثر لأي هالاتٍ سوداء!

ابتسمت وأنا أؤكد أنه «كِرِيم» رائع، بالطبع لم أقل لها إنني جربته مرة واحدة فقط. شعرت أنني نجمة سينمائية مشهورة مع إحدى المُعجبات. هو شعورٌ جميلٌ وغريبٌ. ما زِلتُ أَعجَبُ عندما أقابل شخصًا يعرفني جيدًا ولا أعرفه.

كالعادة أخرجت تليفوني المحمول، وبدأت أتابع ردود الأفعال حول فيديو الأمس. تلقيت العشرات من الرسائل هذه المرة. ما بين فتاة تسأل عن كِرِيم

الهالات السوداء أو شابٌّ تافِه يخبرني بأنني إذا واعدتُه فلن أحتاج لأي كِرِيم ليُزيل الهالات السوداء. ومع تفاهته الواضحة وأسلوبه الرخيص في التعارف، ألقيت نظرة سريعة على صفحته. بالفعل يبدو أنه شابٌّ تافه وطالبٌ صغير بإحدى الجامعات. وبينما أنا مُنهمكة في مطالعة الرسائل أخرجني من هذا العالم كله ارتفاعُ صوت السكرتيرة فجأة...

«قلت لك إن ذلك ليس من عمل الدار، وأنا لا أستطيع أن آخُذ منك أيَّ أموال.. أنا آسفة».

قالتها السكرتيرة بأدبٍ شديدٍ ممزوج بنفاد صبرٍ. رفعت رأسي فوجدتُها تتحدث مع رجل كبير السن، يشير لها بلفافة كبيرة من الأوراق. ظلت السكرتيرة ترفضها في أدب والرجل يبدو عليه التعب الشديد واليأس. شعرت بالحزن لحاله وعُدت مرة أخرى لمتابعة تلفوني.

بعد أن غادر الرجل في حُزنٍ واضحٍ، عاد مرة أخرى فسأل السكرتيرة بصوتٍ عالٍ عن أي مكتب للكمبيوتر معروف في وسط البلد. أجابته بالنفي فانصرف مرةً أخرى. فكرت قليلًا لعلَّ هذا الرجل يريد نشر هذه الأوراق. ولكن لمَ لا تقبل دارُ النشر منه الأوراق لقراءتها. أصابني الفضول. تسللتُ إلى السكرتيرة وسألتُها عن حكاية ذلك الرجل الكبير، فأجابتني بأنه بالفعل يريد نَشْر قصصه في كتاب. المشكلة أن دار النشر تستقبل الأعمال على البريد الإلكتروني لتقييمها، وهذا الرجلُ لا يعرف كيف يُرسلُها.

- تصوّري أنه عرض عليَّ ألفَي جنيه لأكتب له قصصه على الكمبيوتر؟

- أفعلَ ذلك حقًّا؟ كيف يعرض ذلك المبلغ الزهيد على موظفة مهمة مثلكِ وأثناء تأدية عملها؟ لولا أنه رجل كبير لنهرته على هذا السلوك.

- المشكلة ليست فقط في عملي. أولًا: أنا لا أستطيع أن آخُذَ منه الأوراق؛ فقد يتهمني غدًا بسرقته. ثانيًا: في بعض الأحيان نتعامل مع بعض المكاتب المتخصصة، وهذا الكم من الأوراق سيكلف الرجلَ خمسة آلاف من الجنيهات لكتابتها على الكمبيوتر على الأقل. أنا اعتذرت له لأنني لا أريدُ أيَّ مشكلة مع صاحب الدار.

«خمسة آلاف من الجنيهات». رنت هذه الكلمة في أذنيَّ وأنا أعود للانتظار. سألني زياد عن الموضوع فقلت له إنني تحدثت مع السكرتيرة حيث إنها إحدى مُعجباتي.

دار في ذهني أن هذا العميل بسيط وسهل، سأساعد الرجل على كتابة عمله على الكمبيوتر وأحصل على مُقابل ماديٍّ معقولٍ. وبالنسبة لي، فسأنتهي من هذا العمل في أيام.

رأيت أمامي فجأة خمسة آلاف من الجنيهات، ثم أحسست أنها تطير بعيدًا حتى اختفت. قُمت فجأة وقلت لزياد إنني ذاهبة للحمَّام، وانطلقت إلى مدخل البِناية. خرجت من البِناية أنظر يمينًا ويسارًا إلى أن وجدته. رأيت أحدَ المارة آخِذًا يدَه ليساعده في عبور الشارع ببطءٍ. قفزت وسط الشارع

سيارة مُسرعة أن تدهسني وأنا آخذ بيده الأخرى عابرةً الطريق. عن قُرب، رأيته عجوزًا في السبعينيات من عمره، لكنه بدا وسيمًا مُتأنِّقًا وبصحة جيدة بالنسبة لعُمره. لم يفقد شعره الناعم ذا اللون الأبيض الثلجيِّ الجميل.

على الجانب الآخر من الطريق قدمت له نفسي:

- أنا مِنة صالح من دار النشر، حضرتك تُريد كتابة هذه الأوراق على الكمبيوتر؟

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

٨

مِنة

لا أعرف كيف قلتُ له ذلك ولكنني وجدت نفسي فجأة في ورطة؛ فالرجل همَّ بالعودة معي إلى دار النشر. أخبرته ألا داعي للعودة لأنني عندي عملٌ كثيرٌ. ثم أخبرته أن صاحب الدار قد يطرُدني إن علم أنني أساعد الكُتاب بأي شكلٍ. رأيت الشك في عينَيِ الرجل الذي لم يكن يعرف ما الذي يجب أن يفعله. تردَّد في إعطائي رُزمة الأوراق. أما أنا فهممت أن آخذها منه ولكن ترددتُ أيضًا. ماذا ستقول عني السكرتيرة إذا علمَتْ أنني فعلت ذلك من أجل المال. يجب أن أعود الآن أيضًا لأقابل الناشر وزياد المجنون الذي قد يبحث عني في أي لحظة.

- ممكن حضرتك تعطيني اسمك ورقم تليفونك وسأتصل بك اليوم؟

أعطاني الرجل المسكين ورقةً بخطٍّ جميلٍ جدًّا كتب فيها اسمه « مُصطفى كمال وفيق»، وكتبَ رقم تلفونه. لم أرَ في حياتي خطًّا أروع من خط هذا الرجل. خطُّه أفضل من كل «فونتات» الكمبيوتر. طويت الورقة ودسستها بعناية في الشنطة وانطلقت عائدةً للدار. تعاملت مع الورقة تعامُلي مع شيك بنكي بخمسة آلاف جنيه. عُدت إلى صالة الدار فوجدت زياد والسكرتيرة يتحدثون مع رجل أنيق وكبير، يبدو أنه الناشر.

كان رجلًا وسيمًا وأنيقًا في الخمسينيات من عمره. تفوحُ منه رائحة عِطر

رجالي رائع. تصورته للحظة وهو يقود سيارته الفارهة التي لا أعرف أين تركها في زحام وسط البلد. هل هذا الرجل معروف؟ هل لديه مُتابعون عبر مواقع التواصل الاجتماعي؟ التقرب من الشخصيات المؤثرة يزيد المتابعين بالطبع. تُرى كم عدد مُتابِعي دار النشر نفسها؟

في المكتب تحدَّث الرجلُ عنِّي. ذكرَ أنه لا يعرفني ولكن ابنته ذات العشرة أعوام تتابعني وتُحبُّني. وعندما سأل في الدار علمَ أن السكرتيرة أيضًا تعرفني جيدًا. الرجل يعرف بدقة عدد مَن يُتابعونني على جميع المنصات تقريبًا. طلب مني أن أكتب كتابًا يصلح للجميع، لكنه يجب أن يجذبَ انتباه الفتيات المُراهقات. قال إن أغلب القُراء العرب من الفتيات، وأن فئةَ المراهقات فئةٌ عمرية لا يهتم بها أيٌّ مِن الكُتَّاب. بعدها استطاع الرجل أن يُشعل حماسي لهذا الكتاب كأنني «رأفت الهجَّان» المُقبل على عملٍ كبيرٍ من أجل الوطن. وبالفعل جعلتني كلماتُه في غاية الحماس، فبدأت أُفكِّر في الذي سأكتبه.

المهم أن الرجل أنهى اللقاءَ سريعًا دون أن نتطرق لأي أمورٍ مادية. فقط قال لي إنه في انتظار المسودة الأولى وبعدها نُنهي الاتفاق. في طريق العودة سألت زياد عن أهمية الموضوع، فقال لي إنه مُتحمِّس للغاية، وأكد لي أنه يثق أنني أفضل مَن سيكتبُ للمُراهقات.

عُدت إلى البيت وفي غُرفتي قلبت الشنطة كلها على السرير بحثًا عن الورقة. في البداية لم أجدها وسرحتُ بخيالي كيف سأعثر على هذا الرجل

مرة أخرى؟ ألقيت الشنطة بعيدًا وباعدت بين الأشياء الكثيرة المُبعثرة فلم أجد الورقة. ما كل هذه الأشياء التي أحملها معي وأنقلها من شنطة لأخرى بلا هدف؟! بعد دقيقة واحدة بدا السرير كمقلَب قُمامة. فجأة وجدتُ أمي في منتصف الغرفة تنقل بصرها بيني وبين سريري وما عليه من أشياء مُبعثرة في دهشة وصدمة. سألتني عمَّا أفعل. لم تُتحْ لي الفرصة للإجابة فقد اختفتْ سريعًا.

عُدت للفوضى الكبيرة فوق السرير. تذكرت الشنطة نفسها مرة أخرى، قفزت في رشاقة لألتقط الشنطة كأي حارس مَرمى ماهر. بحثت داخلها مرة أخرى إلى أن وجدت الورقة مَطويَّة بعناية داخل أحد الجيوب الداخلية للشنطة.

اتصلت بالأستاذ مُصطفى فردَّ عليَّ سريعًا كأنه ينتظر المكالمة. صوته ضعيف واهن كهيئته. ذكَّرتُه بنفسي، هذه المرة قلتُ له بصراحة إنني لستُ موظفة بدار النشر ولكنني كاتبة. طلبت منه أن يكون التعاملُ بيننا مباشرًا حيث إنني لا أُمثِّلُ الدار. عرضت عليه أن أساعده في كتابة كل أوراقه على الكمبيوتر. اتفقنا على اللقاء في اليوم التالي. طلبَ مني أن أُقابلَه في الواحدة من بَعد ظهر اليوم التالي بنادي المعادي. أخبرني بأنه سيترك دعوةً لدخول النادي باسمي، وأنه سينتظرني ومعه الأوراق في الحديقة الكبيرة. بالطبع قبلتُ ووعدتُه باللقاء. فكرت أنني قد أجد بين أوراقه وما كتبَ أيَّ فكرة تصلح لكتابة كتابي الذي اتفقتُ عليه مع الناشر.

نظرت حولي في الفوضى التي خلفتها فوق السرير فوجدت ورقة مطوية من فئة المائتَي جنيه. العثور المفاجئ على أموالٍ من أحلى المُفاجآت. قفزت نحوها لأتأكد أنها حقيقية وأنها ليست وهمًا مما أرى أحيانًا. تذكرت تلك الورقة، كانت قديمة ومقطوعة وتم رفضُها مني عدة مرات.

أخذت الورقة إلى مكتبي، ولعشر دقائق كاملة تقمصت دورَ الصائغ الدقيق وأنا أصلح الورقة وأُعِيد لصق أطرافها معًا بالصمغ والشريط اللاصق. تأكدت من دقة العمل ووضوح رقم الورقة على الجانبين. قربت نظري من الورقة بشدة وعُدت أتأمل الأطراف وأنا مُعجبة جدًّا بدقة عملي، وفجأة كاد الصمغ أن ينسكب على الورقة عندما سمعتُ صراخ أمي الذي أرعبني:

- ماذا تفعلين؟ ولماذا هذه الفوضى على سريركِ؟ اتبعيني فورًا، الغداءُ جاهز!

تركت الصمغ والورقة وسريري وما فيه من فوضى لأساعدها. تبعتُها وأنا أروي لها كيف أن دار النشر الكبيرة عهدت إليَّ بمهمة كتابة كتاب مُوجَّه للشابات المراهقات. لم أسترح لنظرة أمي أو لحركة الشفاه التي ردَّت بها عليَّ. وكأنني سمعتها تهمس سرًّا: «يا زين ما اختاروا!». لا أعرف هل قالتها حقًّا أم أنني فقط تصورتُ ذلك.

٩

مُصطفى

لا أعرف مَن هذه الفتاة المفعوصة التي هاجمتني في الشارع بالأمس. في البداية قالت إنها من دار النشر، ثم عادت لنفي ذلك. عندما عُدت من وسط البلد بالأمس هاتفت وجدي وقصصت عليه القصة كلها. هو أيضًا لم يسترح لحكايتها. الغريب أنها لم تطلب مني الأوراق ولا سألتني عما فيها. فقط طلبت رقم هاتفي. المهم أنني خططتُ جيدًا مع وجدي للحفاظ على جميع حقوقي المادية والأدبية.

سأقابل هذه الفتاة في النادي؛ أي في أرضي أنا. سأطلب منها الاطلاع على بطاقتها الشخصية والحصول على صورة ضوئية منها. كتبت إقرارًا سأطلب منها أن تُوقعه. تقر هذه الفتاةُ فيه أنها تسلمت مسودة كتابي الأولى، وذكرتُ تفاصيلَ القصص وعدد الصفحات. وأخيرًا سأحاول ألا أدفع مقدمًا للاتفاق قبل أن أرى عيِّنة من الكتابة على الكمبيوتر وأوافق عليها. فقط بهذه الضمانات سوف أُسلِّمها القصص. احتفظت بنُسخةٍ من الأوراق عندى تحسُّبًا للظروف.

جلست في النادي ظُهرًا كعادتي. أخبرت عم سيد على الباب بقدومها وتركت الدعوة باسمها. انتظرت في الحديقة المجاورة للباب. طلبت فنجانًا من القهوة. القهوة هنا رائعة والجو جميل في الحديقة. بالطبع ليس عليَّ أن

أدفع ثلاثين جنيهًا مثلما هو الحال في «بينوس».

بالطبع تعدَّت الساعة الواحدة ولم تظهر. لا فائدة أبدًا من هذا الجيل كله. تُرى هل أحفادي أيضًا مثلها؟ هي أكبر قليلًا منهم.

وفي الواحدة والعشرين دقيقة ظهرت الفتاةُ المفعوصة. هي شابَّة نحيفة، سمراء جميلة. شعرها أسود ناعم متوسط الطول. تسير بخُطى ثابتة وسريعة نحوي، يبدو أن عم سيد أخبرها بمكاني. جاءتني مُعتذرة، فقبلتُ اعتذارَها. أعادت عليَّ ما قالته لي بالأمس على الهاتف. قالت إنها كاتبة ولها كتابٌ سيتم نشره في نفس دار النشر التي رأتني فيها بالأمس. قالت إنها فقط تريد مساعدتي. عرضت عليها الأوراق، طالعَتْها بسرعة. وتعجبت من حُسن خطي وسألتني عنه فأخبرتها أنني بالفعل خطاط وأقوم برسم لوحات خطية أيضًا. وأنني حاليًّا أصمم بعض الأغلفة الخطية لكتابي، ولكني ما زلت أفكر في اسم الكتاب.

- حضرتك خطاط؟ أهناك مهنة أصلًا للشخص ذي الخط الجيد؟

- أنا مهندس معماري بالمعاش، ولكنني خطاط أيضًا. ونعم، هناك مهنة تسمى «الخطاط»، وهي موجودة إلى الآن. وحضرتِك، ما وظيفتكِ؟

- في الحقيقة أنا ليست لي وظيفة ثابتة، أنا «إنفلونسر» على الإنترنت.

لم أفهم ما قالت، بدا الوجومُ على وجهي لبرهة، يبدو أنها لاحظت عدم فهمي للموضوع فأردفتْ قائلة:

- «بلوجر».. أقصد مُؤثِّرة أو مُدوِّنة...

- مؤثرة؟ فيمَن تؤثرين بالضبط؟ وهل تتقاضين راتبًا عن هذا التأثير؟

راحت تشرح لي أشياء عن تصوير فيديوهات وكتابة مقالات صغيرة. أحسست بالريبة مرة أخرى ولم أفهم مَن يدفع لها لتصوير هذه الفيديوهات. عندما فشلَتْ في إقناعي فتحَتْ هاتفها المحمول وأشارَتْ لي لأشاهد مقطعًا صغيرًا تتحدث فيه عن يومها وملابسها. شيء في مُنتهى السطحية والسخافة.

- حضرتك، ما رأيُكَ؟

- في الحقيقة لا أشعر بأي تأثير. هل هذا المقطع مُؤثر؟

أحسست بعدم جدوى فهمي لهذا العمل الغريب الذي تقوم به. فضَّلتُ الحديث حول الموضوع بشكل مباشر. طلبت منها صورة البطاقة. فوجئت أن معها نسخة وأعطتني إياها ببساطة. مِنة الله حسين عبد الحميد توفيق صالح. تسكن في مدينة نصر. الوظيفة في البطاقة: طالبة بكلية التجارة. مما يعني أنها مُحاسبة، لا أعرف لمَ تحاول الادعاء بأنها مُؤثِّرة أو مُقدمة برامج على الإنترنت!

طلبتُ منها أن تُوقِّع الإقرار، وقَّعت دون أن تقرأ سطرًا. أيُّ جيل هذا؟ في المرة القادمة سأجعلُها تتنازل عن أي مقابل لكتابة عملي كي تتعلم الدرس وتقرأ قبل أن تُوقِّع. سألتها عن الوقت الذي ستستغرقه في الكتابة، فطلبت

أسبوعين. سألتني هي عن المُقابل فقلت لها: «ألف جنيه».

- سأحتاج وقودًا لسيارتي وسأشربُ قهوة أثناء العمل بما يزيد عن هذه الألف جنيه.

- ألف جنيه قهوة؟ لعلكِ ستشربين القهوة ذات الثلاثين جنيهًا من «بينوس».

- ستاربكس.

للمرة الحادية عشرة لا أفهم ما تقول. إنفلونسر ويلوجر وستاربكس. هذه المرة تجاهلتُ الموضوع وانتقلتُ سريعًا لمرحلة الفِصال التي توقعتها.

- أريد خمسة آلاف جنيه نصفُها مُقدَّم.

- ألف وخمسمائة جُنيه، والمقدَّم بعد أن أرى عينةً من قِصَّتين.

- أربعة آلاف جنيه ومُقدَّم خمسمائة جنيه الآن.

اتفقنا في النهاية على ألفين وخمسمائة جنيه، والمقدَّم ألف جنيه بعد كتابة مقال أو قصة واحدة بالتشكيل وعلامات الترقيم الصحيحة. طلبت منها أن نلتقي في نفس الموعد والمكان في اليوم التالي، تكون هي كتبت القصة الأولى وقرأتْ خمس قصص على الأقل من المجموعة. سلمتُها مخطوطة من نُصوصي بعنوان «المعادي في الستينيات - تأمُّلات في العمارة»، أغلبها تدور حول الأماكن القديمة في المعادي وما طرأ عليها من

تغيرات (أو من قُبح). أردت أن أعرف رأيها ككاتبة. ليست لي علاقة بدور النشر ولا أعرف هل سيكون في كتاباتي أي تأثير. هي مؤثرة بالفعل (كما تقول) فلعلَّها تدُلّني على مَواطن القوة والضعف أو التأثير في نصوصي القصيرة. كل ما تمنيت هو أن أترك إرثًا قيمًا لأحفادي يعرفونني من خلاله ويتذكرونني.

تركَتْني تلك الفتاةُ المفعوصة في النادي حيث عُدت لهزائمي المعتادة في الطاولة. بالطبع حكيت تفاصيل مفاوضاتي مع المفعوصة لوجدي. يبدو أن وجدي يفهم بعضَ الشيء في أمر المؤثِّرين مثلها. سألني عن اسم هذه المفعوصة فلم أتذكره. احتجتُ للرجوع لصورة بطاقتها لأتذكر اسمها.

حين عُدت للبيت-وجدته على أحسن حالٍ بعد أن قامت زوجةُ الحارس بتنظيفه بالكامل. ما زلتُ لا أذكر اسمَها، ولكني تذكرت أننا نُناديها باسم ابنها، ولكنني لا أذكر اسمه أيضًا.

شعرتُ بالسعادة عندما تخيلت كتابًا يحمل اسمِي، أحببتُ فكرة أن أنقل لأحفادي صورة المعادي الجميلة كما كانت. شعر. هاتفت ابنتي في دُبي، فردَّتْ عليَّ مُعتذرةً عن قلة التواصل بالانشغال. أحب الحديث مع ابنتي شيرين؛ فهي ابنة حنونة. كلما تحدثت معها شعرت بالدفء الشديد. طالما طلبتْ مني تعلُّم استخدام برامج الاتصال عبر الإنترنت لكي نتحدث بشكل أطول، لكنني لا أُجِيد مثلَ هذه البرامج. بعد حوار طويل معها طلبت منها أن أتحدث مع حفيدتي وحبيبتي «نادية».

كالعادة تحدثتْ نادية باقتضاب بحديث نصفه بالإنجليزية لم أفهم منه الكثير. سألتُها عن المؤثرين! فأجابتني باستنكار: «مؤثرين؟!»، رُحتُ أشرح لها أنني أتحدث عن المؤثرين في الإنترنت. شرحت لها أنني أقصد مُذيعي البرامج على الإنترنت، وبعد جهد سألتني: أتقصد «إنفلونسرز»؟ فأجبت بالإيجاب. سألتها إن كانت تعرف فتاة مصرية مفعوصة مؤثرة، فسألتني عن اسمها. تبًّا لتلك الذاكرة الفاسدة، نسيت اسمها مرة أخرى. أحسست أن الحوار لا يسير بشكل جيد كالذي بيني وبين شيرين. أشعر بالحزن أنني لا أستطيع أن أتواصل بشكل جيد مع نادية تحديدًا. هل قُدِّر للإنسان أن يُجيد التواصل مع جيلٍ واحدٍ قبله وجِيل واحد بعده فقط؟ حاولتُ أن أتذكَّر عَلاقتي بجُدودي، ولكن الذاكرة خانتني للأسف، أنا لم أرَ إلا جدة واحدة أحببتُها جدًّا لكنها ماتت وأنا صغير. أنهيت المكالمة وعُدت لأوراقي باحثًا عن اسم تلك الفتاة المفعوصة التي حصلتْ على الحقوق الحصرية لكتابة كتابي.

١٠

مِنة

لا أعرف ما الذي دفعني لأن أُطارِد عجوزًا في السبعينيات من أجل المال. شعرت بحسرة شديدة وانكسار. أقود سيارتي من مدينة نصر للمعادي لأتفاوض مع ديناصور يكتب بالورقة والقلم من أجل مبلغ بسيط. أنا واثقة من أن ما كتبه سيكون في مُنتهى الجمود والبرود. عمومًا سأحاول الانتهاء من كتابة معظم ما كتبَ قدر المُستطاع لعلي أحصل منه على المبلغ المتفق عليه. أحسب أن مثله لن يخدعني ويماطل في الدفع. يبدو عليه من ملابسه أنه ميسور الحال.

عندما عُدت وجدت رسالة على تيليفوني من إحدى صديقاتي؛ ممثلة شابّة تدعوني لحفل كبير في فيلًا في التجمع الخامس. أكدَتْ لي في الرسالة أن الحفل سيحضره العديد من الفنانين ومشاهير الإنترنت (والتي اعتبرتني منهم)، وهي فرصة للتعارف والاندماج مع المشاهير. من خلال عملي أعرف جيدًا أن هذه الصور مهمة جدًّا لزيادة المتابعين. صورة واحدة ينشرها فنان كبير مع الإشارة لي ويحدث تدفق هائل من متابعيه على صفحتي. قررت أن أقبل الدعوة بلا تردُّد.

تحدثت مع زياد، لكنه على العكس لم يتحمس لذهابي للحفل. دائمًا ما يخاف من وجودي في ذلك الوسط. أعرف أن الحفل سيمتلئ بكل أنواع

البنات وبالخمور والمخدرات، ولكنني أعرف جيدًا كيف أحمي نفسي، وأن أضع للآخرين حُدودًا في التعامل معي. أخبرته بأنني في الغالب لن أذهب.

قضيت اليوم كله ما بين: «سأذهب للحفل» و«لن أذهب فلست مُتحمسة وليس عندي فستان جديد». موضوع الفستان يبدو للوهلة الأولى تقليديًا ومعروفًا للجميع. كل النساء ليس عندها ملابس كافية أو مناسبة. الموضوع أشد تعقيدًا في حالتي. أي شخص يستطيع أن يفتح صفحتي على إنستجرام وفي دقيقة واحدة يستطيع أن يرى كل صوري وملابسي. لو أعدتُ ارتداء فستان واحد ارتديته سابقًا فسأجد عشرات البنات يتحدثن في الموضوع. وقد تستنتج إحداهن أنني ليس عندي إلا فستانين أو ثلاث، أو أنني أُعاني ضائقة مالية.

الآن زياد مع دولاب ملابسي يدفعانني لرفض الدعوة. الظهور مع بعض المشاهير وزيادة المتابعين يدفعانني للجانب الآخر. ألقيت نظرة على أعداد المتابعين فوجدت أن المتابعين على إنستجرام في حدود نصف مليون مُتابع. أما على يوتيوب، فالرقم يقل عن الخمسين ألفًا. تخيلت نفسي في صورة مع كريم عبد العزيز أو آسِر ياسين، يمكنني زيادة المتابعين لضعف هذا الرقم في يوم واحد. عُدت لدولاب ملابسي. يبدو أنني لن أذهب لتلك الحفلة.

جلست أكتب أوراق ذلك العجوز على الكمبيوتر. أغلب مقالاته تغزَّلتْ في شوارع المعادي وميادينها وفيلَّاتها قديمًا. أنا أصلًا لا أحب المعادي

وأتوه في شوارعها في كل مرة. لا أعرف مَن العبقري الذي اقترح تسمية الشوارع بالأرقام. تُهت بين الأوراق فشعرتُ بالملل مما أقرأ وأكتب. الحق أن خط ذلك العجوز أفضل من جميع الخطوط على الكمبيوتر. آخر جُملة كتبها في نهاية إحدى مقالاته: «وكلما ضاقت الدنيا وشعرتُ بالعجز، وأن ما لديَّ نفدَ، عُدت لدولاب ذكرياتي أقلبُ فيه، ففيه كُنوزٌ تُشعرني بأنني أمتلك أكثر بكثير مما أعتقد». رأيتُها جُملة مُملة تقليدية كسابقاتها، إلا أنها استوقفتني!

«عُدت لدولاب ذكرياتي»، قرأتُها مرات ثم قُمت هاتفَةً كأرخميدس: وجدتُها.. وجدتُها!

١١

مِنة

ارتديتُ أحدَ فساتين أمي القديمة. اخترتُه بسهولة بمجرد أن فتحت دولابها. شعرت بأنه يُناديني. ذهبت إلى الحفل مع صديقتي صاحبة الدعوة. وضعت خطتي بوضوح: أريد أن أخرج من ذلك الحفل بصور مع أشهر مَن فيه. أريدهم هم أن ينشروا هذه الصور على حساباتهم لعلِّي أنام فأستيقظ على مليون متابع على إنستجرام ومثلهم على يوتيوب.

لو تحقق الحلم فسأنتقل من درجة إلى درجة أخرى تمامًا. ستنهال عليَّ أموالُ المعلنين. سأستقبل الدروع والهدايا والأموال من «يوتيوب». سيمتلئ حسابي البنكي بالدولارات. يومها ستعترف أمي أن عملي أفضل بكثير من التحاقي بعمل وظيفي مُمِلٍّ لا مستقبل له.

فيلَّا ضخمة داخل «كمبوند» رائع الجمال بالتجمع الخامس. أضواء الليزر المُبهرة مختلطة بفلاشات الكاميرات والموبايلات. روائح العطور تفوح من خارج الفيلَّا مع موسيقى الجاز في الخلفية. الحفل أقيم بمناسبة عيد ميلاد فنانة شابة، يقيم الحفل لها خطيبُها رجل الأعمال. أعرف الفنانة معرفة بسيطة منذ زمنٍ بعيدٍ. بيننا الكثير من الأصدقاء المشتركين. هنأتُ هذه الفنانة على عيد ميلادها وحرصت على التقاط الصور معها. هذه المتكبرة ابتسمت لي ابتسامة صفراء كأنني إحدى مُعجباتها. أنا أعرف أنها تعرفني

شخصيًّا جيدًا وبالاسم. شعرتُ بالإهانة وفكرت في الرحيل. لم يكن كريم عبد العزيز أو آسِر ياسين بالحفل. نظرت حولي، تخيلتُ أن كل شخص مكتوب فوق رأسه عدد المتابعين. باستثناء رجل الأعمال وصديقته المُتعجرفة، لا أعتقد أن أحدًا في الحفل لديه مليون مُتابع.

فستان أمي جميل بحق ويستحق الإشادة والتصوير. طلبت من صديقتي أن تلتقط لي بعض الصور. اخترت إحدى الصور ونشرتها على قصص إنستجرام. بمجرد أن نشرتُها رن جرس تلفوني، وبالطبع فالمتصل زياد. توقعت المكالمة ولكني لم أتوقعها بهذه السرعة. شرحت له أنني جئت فقط لالتقاط بعض الصور وسأرحل فورًا. شعرت بالاستياء في كلامه وأنهى المكالمة دون أن أسمع ما يقول من ضوضاء الحفل.

فجأة ظهرتْ «هبة ماهر». وهي زميلتي منذ أيام المدرسة. فتاة مغرورة وتافهة، ولكن...

مكتوب فوق رأسها الرقم: مليون ونصف. على مدى سنوات فشلتُ في معرفة لمَ يتابعها الجميع. لا أجد أيَّ سببٍ مُقنعٍ لأي شخص ليتابعها. الظريف أنني أتابعها لأعرف لماذا يتابعها الآخرون. يبدو أن الآخرين أيضًا يتابعونها ليعرفوا السبب. رغم طرافة الأمر إلا أن ما أقوله صحيح تمامًا ومُثبَّت علميًّا. أثبتت الأبحاث أن البعض يلجأ لمتابعة مشاهير الإنترنت فقط حين يرى ضخامة متابعيهم، أو حين يرى العلامة الزرقاء المميزة. أعرف أن صورة مع هبة على حسابها قد تعني آلاف المتابعين الجدد لي في نفس

الليلة. ألقيت كبريائي على الأرض وسحبت صديقتي وهرولتُ نحو هبة صارخة من الفرحة:

- هبة! لم أركِ منذ سنين. كيف حالكِ؟

احتضنتني تلك البلهاء دون أن تلمسني، حرصًا منها على المكياج والملابس. استخدمتْ كلٌّ منا أشعة «إكس» النسائية لعمل فحص شامل للفستان والمكياج والبرفان والشعر والحذاء والشنطة. استغرق الفحص ثانية واحدة وظهرت نتيجته كاملة في نفس الوقت. يبدو أنها استعدت جيدًا للحفل ولم تستخدم فستان أمها كما فعلتُ أنا. أخرجَتْ تيليفونها «آي فون» الجديد والتقطت لنا صورة معًا، دعوت الله أن أبدو بصورة جيدة فيها وأن تنشرها على صفحتها وتشير إليَّ. سألتني عن أخباري، أردت أن أجذب انتباهها بأي خبر لعلها تنشر صورتنا معًا. أخبرتها بأنني تعاقدت مع دار نشر كبيرة لإصدار أولى رواياتي. لا أعرف لمَ قلت لها إن كتابي سيكون رواية. قلت أول ما خطر ببالي وحسبته سيجذب انتباهها. سألتني عن الرواية فأخبرتُها أنها رواية مُشوِّقة جدًّا تصلح كسيناريو لفيلم. حاولتُ جاهدةً أن أجذب انتباهها. لو سألتني عن المزيد من التفاصيل لقلت لها إن الرواية ستتحول إلى فيلم من بطولتي أنا وآسِر ياسين وكريم عبد العزيز بعد اعتذار «براد بيت» لانشغاله بتصوير أعمال أخرى أقل أهمية.

بينما أنا أكذب وأتجمل ظهر وجهُ شابٌّ مألوف. وجه مُمثل شاب وسيم. هبة أخبرتني أنها تعرفه جيدًا. جالَ بخاطري أنها هي أيضًا تكذب وتتجمل

مثلي. ذلك الشاب فاتن بحق، أشقر ذو جسد رياضي وملابسه تُوحي بأنه من عائلة شديدة الثراء. نموذج مُصغر لحسين فهمي من خمسين سنة. تخيلت أن لديه على الأقل مليونَي مُتابِع (أو مُتابِعة تقريبًا). لم أعرف اسمه لأبحث عنه في إنستجرام. سألت هبة عنه فقالت لي إنه «منير أباظة». شاب من عائلة ثرية، وظهر في بعض الأدوار الدرامية المميزة مؤخرًا. لا أعرف كيف انقلب الأمر فجأة بالنسبة لي، صِرتُ أرى الناس كلَّهم حسب عدد مُتابعيهم. هذا لديه مائة ألف، وهذه لديها ربع مليون، أما هذا فمليونير، لديه مليونان من المتابعين. ومَن جاور السعيد يسعد، أو للدقة: مَن حصل على صورة و«منشن» مع مليونير، حصل معها على آلاف المتابعين الجُدد!

تأكدت أن كرامتي ما زالت على الأرض، فالتصقتُ بهبة كأنني أعز صديقاتها. وبالفعل فقد التقت أعين هبة ومنير وتبادلا الأحضان والقُبلات. تبًّا لهذه الفتاة البلهاء، هذه المرة رأيتُها تحتضنه وتُقبِّله ولا يعنيها فساد المكياج أو كرمشة الملابس. عرَّفت نفسي لمنير الذي لمعت عيناه وهو يُسلِّم عليَّ. رأيت انعكاس تلك اللمعة في عينَي هبة البلهاء. حرصتْ صديقتي البلهاء على الوقوف بيننا تمامًا لتقطع الطريق والحوار بيننا قدر المستطاع.

كان الموقف أشبه بمُباراة شطرنج. وقفت هي كعسكري لحماية الملك مني أنا الوزيرة. كلما تحركت، تحركتْ هي أيضًا لتُدافع عن مَلِكها. فجأة

سألني الملك عن عملي. أخبرته أنني كاتبة روائية وأستعد لنشر روايتي الأولى التي قال الناشر عنها إنها ستكون رواية الموسم وفيلمًا ناجحًا. رأيت الحسد يشتد في عينيها مع ما قلت، وحاولتْ بسرعة شديدة تغيير دفة الحديث. سألَتْه هي عن آخر أعماله. سؤال تافه ومُكرر، ليس عندها أي تجديد. فاجأني بسؤال مُباغِت: «هل يمكن أن أقرأ معالجةً لروايتكِ؟»، أجبته بالإيجاب دون أن أتذكر أن روايتي لا وجود لها. اتفقنا على أن أُرسِل له المعالجة في أقرب فرصة وتبادلنا أرقام الهواتف والأسماء وسط ذهول وصدمة العسكري. كِش مَلِك!

١٢

مِنة

رنين المنبه الخاص بتيليفوني أيقظني وأيقظ أمي، وأحسبه أيقظ مَن لم يستيقظ بالفعل من الجيران. أوقفت المنبه المُزعج وبعينٍ واحدةٍ سحبت التيليفون وفتحت برنامج «إنستجرام». بالفعل فقد نشرَتْ صديقتي البلهاء صورتنا معًا، مما أدى إلى زيادة ملحوظة من متابعيها على حسابي. أحسبهم جميعًا بُلهاء مثلها.

رُحت أبحث عن منير أباظة فلم أجد له وجودًا على «إنستجرام». أعتقد أنه سيبعث لي برسالة اليوم أو غدًا. ماذا لو سألني عن المعالجة؟ ليس عندي رواية أو معالجة ولا أي فكرة أكتبها.

اتفاقي مع دار النشر دار حول نشر كتاب. لم يحدد الناشر نوع الكتاب، رواية أم مقالات. راقت لي فكرة أن أكتب رواية. سأفكر في الأمر. يمكن أن أبدأ بالمعالجة لعلها تروق لمنير وأجد منتجًا يشتري مني حقوق الرواية قبل كتابتها. تذكرتُ فيلمًا قديمًا، يبدو أنني قد بِعتُ «الفنكوش» وعليَّ الآن أن أكتبه.

اليوم ألتقي بالعجوز في المعادي ومعي ما كتبت من مقالاته المُملَّة. بسرعة شديدة راجعت ما كتبت، حرصت على إضافة التشكيل كما كتبه بالنص الورقي الأصلي. نسختُ الملف على «فلاشة» ودسستُها في حقيبتي

وانطلقتُ إلى المعادي.

انتابني شعورٌ بأنني نسيتُ شيئًا. وهو شعور ينتابني كثيرًا فصِرتُ لا أُولِيه أيَّ اهتمام. كان الجو جميلًا والمرور في أفضل حالاته. استغرقَتْ الرحلةُ إلى المعادي نصف ساعة فقط. طوال الطريق لم ينقطع رنين تيليفوني. زياد هو المتصل كالعادة. لا يجب أن يعرف موضوع مُصطفى أو موضوع المال الذي آخُذهُ منه. لن أرد عليه الآن وسأتصل به حتمًا بعد عودتي إلى مدينة نصر.

في نادي المعادي قابلتُ الرجل وأعطيته «الفلاشة» فنظر لي بدهشة كبيرة:

- ما هذا؟

هنا تنبهت بأن الرجل ربما لا يملك جهاز كمبيوتر من الأصل. شعرت بالغباء الشديد لعدم إحضار جهاز الكمبيوتر المحمول معي. شرحت للرجل وأقسمت له أغلظ الأيمان بأن قطعة الحديد هذه تحتوي على ملف فيه كتابُه. لم يبدُ على وجهه الاقتناع.

دخلنا في مفاوضات كثيرة وشاركنا فيها أحد أصدقاء العجوز والذي بدا أكثر تفهُّمًا بموضوع «الفلاشة» وشرح له الموضوع. المهم أن الموقف انتهى على أن آخُذ المُقدَّم المتفق عليه مع وعدٍ بلقاء آخر في نفس المكان بعد يومين ومعي الكتاب بالكامل. يبدو أنه اطمأن لهذا الحلّ واطمأن

لحضوري اليوم في الموعد وإن لم يطمئن أبدًا لموضوع «الحديدة» كما أطلقَ عليها.

شكرتُه، وقبل أن أرحل سألني على استحياء عن رأيي فيما قرأت. سكتُّ قليلًا. لم أُرِد أن أنافق الرجل أو أن أُحرِجه. لم تكن لديَّ إجابة لتُقَال. رأيي أن المقالات مُملة. شرحت له أنني لستُ من عُشَّاق المعادي؛ ولذلك فلم أجد ما يربطني بالأماكن القديمة. قال أشياء عن أحفاده وأنه ينوي إهداء الكتاب لهم ليعرفوا المزيد عن جدهم وجذورهم في مصر. ابتسمتُ ابتسامة صفراء ويبدو أنه قرأ ما أفكر فيه سريعًا. انتابني شعورٌ غريبٌ أن ذلك العجوز يقرأ أفكاري ويفهم ما أريد أن أقول قبل أن أقوله. سألني النصيحة.

شرحتُ له أنني أُفضِّل الحكايات. أشرتُ إليه أن يروي بعضًا من ذكرياته. تلك الذكريات وقعتُ حتمًا في نفس الأماكن التي كتب عنها. قلت له أن يكتب عن نفسه وما مرَّ به من خبرات وحكايات.

- وما نوع الروايات التي تجذبُ الشباب؟

- أعتقد أن الشباب يُفضِّل روايات الرعب.

بالفعل، فالشباب الصغير يُفضل هذه النوعية، ولكن الرجل نظرَ لي نظرةً تُشير باتهامي بالجنون، فحاولتُ تقريبَ وجهات النظر قليلًا..

- الروايات البوليسية، هل تتذكَّر في حياتك أو في المعادي أي أحداث فيها جريمةٌ أو غُموض؟

- لا، حياتي أبسط من ذلك. مليئة بالفن والخط والتصميم والعمارة، بلا رُعبٍ أو جريمة...

الحياة الهادئة الرتيبة لن تؤدي إلى قصة أو رواية درامية مؤثرة أو مُشوّقة. بالطبع فكرت في ذلك في سِري لكيلا أزيد من إحباط الرجل فيُلغي المشروع كله وأخسر المبلغ. خطرتْ ببالي فكرةٌ بدت أفضل قليلًا..

- بلا حُب أيضًا؟ الرومانسية جواد رابح في كل العصور، ربما مررتَ يومًا بقصة حُبٍّ حقيقية تُلهم بها قلوبَ أحفادك. ما رأيُك بقصة حُب في المعادي؟

وهنا بهتَ العجوز وكأنني صدمته. لمعت عيناهُ فجأة وساد الصمت. بدا كأنه يُفكر فيما قلت بعُمق. أدركت أنني أصبتُ الهدفَ. طال صمتُ الرجل وأردت أن أرحل فقلتُ له: «الحديث عن الأماكن بشكل مُجرَّد ليس له معنى. تخيل لو كتبت مقالًا عن جسر، عن طوله وعرضه وتاريخه. مجرد مقال بارد من المشاعر. ماذا لو رويتُ لك قِصَّة حُب عظيمة وكيف أن لقاءات الحب تمت فوق نفس الجسر إلى أن صار الجسرُ رمزًا لهذا الحب! تستطيع من خلال القصة ربط شعور القارئ بالجسر فيُحبه ويتمنى الوقوف فوقه. القصة تُعطي للمكان الدفء والمعنى. لو أعدتَ الكتابة في إطار قصتكَ الشخصية أو قصصتَ قِصَّة حُبك ومن خلالها أعدتَ الكتابة عن الأماكن، فربما تدخل هذه الشوارع والمحلات والميادين القلوبَ ويرتبط بها مَن يقرأ.

ردَّ عليَّ الرجل بصمت تام، لكنني قرأت الكثير في عَينَيْه.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

١٣

زياد

اللعنة على ذلك الحُب الذي يُذل صاحبَه.

للمرة المليون لا تردّ عليَّ مِنة. اللعنة عليها، بل اللعنة عليَّ أنا. طوال الوقت أقول لنفسي إنني مُخرج، أمامي مستقبل كبير. تخرجت منذ سنتين من معهد السينما. أنا من أوائل دفعتي والجميع ينتظر مني فيلمًا روائيًّا أو قصيرًا للعرض في أكبر المهرجانات السينمائية. وبدلًا من العمل على مشروع فيلم لمهرجان «كان» أو «فينيسيا» فُوجِئ أساتذتي أنني أُخرِج فيديوهات تافهة على يوتيوب لا أضع اسمي عليها.

لولا الإعلانات التي استطعت العمل فيها كمُساعد مخرج لكنت بلا مصدر دخل. لكن طموحي أكبر بكثير من المهزلة التي أمُرُّ بها الآن. ما بين فيديو لشرح مميزات «كِريم أساس»، أو إعلان سَمن صناعي نقضي فيه نصف يومٍ في تصوير بقرةٍ لا علاقة لها بالسَّمن

الصناعي أصلًا. مهزلة يتم سحقي فيها من الجانبَيْن. أشعر بالقهر والذل بين حُبي لمِنة من ناحية وبين احتياجاتي المادية من الناحية الأخرى. طموحي أن أصنع أفلامًا عظيمة للتاريخ يشاهدها العالم كله. لكنني أصنع إعلانًا لعلبة صلصة تُشاهده ربات البيوت. أو أُصوّر فيديو للعرض على يوتيوب لمِنة وهي تشرح للمراهقات فن اختيار ألوان المكياج تماشيًا مع الموضة والذوق الشخصي! لولا مِنة لما قبلتُ هذه المهزلة.

مِنة بالنسبة لي هي حياتي، هي مُستقبلي. عندما أتصور أنني عليَّ أن أتسلم جائزة من مهرجان دولي كبير، أتخيل مِنة معي؛ اليد في اليد. لا أتصور حلمي ومستقبلي دونها. درسنا في المدرسة نفسها. عرفتها عن قُرب في المرحلة الثانوية. أنا أكبر منها بعامَيْن.

عندما التحقتُ بالمعهد وتركتُ المدرسة أحسستُ أن شيئًا ما ينقصني. في البداية لم أفهم ما هو هذا الشيء وما حقيقة شعوري إلا عندما قابلتُها يومًا بالصدفة. يومها سألتني عن المعهد والطلاب

والطالبات ومشاهير الأساتذة. منذ تلك اللحظة وأنا لا أشعر بالوقت معها. أفقد الزمن تمامًا وكأنني تائه في ثُقب أسود خارج حدود الزمان والمكان والمعقول.

لا أذكر أنني تركتُها مرة واحدة منذ سنوات. هي مَن تستأذن لتتركني، أما أنا، فلا أتركها وأنصرف أبدًا ولو بعد شهر.

اخترت مِنة لبطولة أحد أفلامي القصيرة أيام المعهد. لعلَّها أحبَّت الكاميرات والصور منذ ذلك الحين. زاد تقارُبي مع مِنة مع الوقت إلى أن عزمت أن أصارحها بمشاعري كلِّها، إلا أن سفر والدها المُفاجئ للعمل في الخارج أربك مِنة فجأةً لدرجة أنني شعرت أنها أُصِيبت بالاكتئاب. ابتعدتْ عني وعزلتْ نفسها لفترة طويلة قبل أن أنجح في إخراجها من عزلتها. اقترحتُ عليها أن تُنشئ صفحة عامة على إنستجرام تتحدث فيها مع البنات، عن اهتماماتهن، من ملابس وأدوات تجميل وغيره. في البداية لم تتحمس كثيرًا إلا أنها قررت خوضَ التجربة. بعد عدة أشهُر انتشر لها فيديو على شبكات التواصل مما أدى إلى زيادة كبيرة

في أعداد المتابعين والمتابعات. بدأتُ أتقرب منها مرة أخرى وأنا أتحيَّن اللحظة المناسبة للبوح لها بما في نفسي.

تطورت الأمور، واقترحتُ عليها أن تُنشئ قناة يوتيوب، حيث إن ذلك سيُوفر لها دخلًا شهريًّا مما سيساعدها على الاستمرار في تقديم الفيديوهات إن أرادت. ومنذ عدة شهورٍ بدأت مِنة في الانسحاب التدريجي من حياتي وسَط ذهولي وحزني العميق. لا شكَّ أنها تعرف ما أشعر به جيدًا. المرأة ذكية جدًّا وقادرة على ملاحظة أقل لمحة إعجاب. مثلُها تُدرك الأمور بسهولة، أنا هنا لا أتحدث عن كلمة إطراء أو نظرة إعجاب، ولكن عن حُب حقيقي نزعني من نفسي وعملي وقذف بي في بحرها. هل يتصور شخص أن محمد صلاح يترك الدوري الإنجليزي والعالمية ليلعب في دورة رمضانية يُقيمها عُمدة قريته؟ ما الذي يمكن أن يدفع بطل العالم في سباقات السيارات أن يعمل سائقًا لميكروباص على خط فيصل- المطبعة؟

بدأ أهلي يلومونني لإضاعة أفضل سنوات عمري في

تصوير فيديوهات ساذجة؛ ولذلك فقد قررت مؤخرًا أن أبدأ تصوير فيلمي القصير الأول.

خطتي لمستقبلي المهني واضحة. في البداية يجب أن أبدأ بفيلم قصير، رِوائي أو وثائقي، عليَّ أن أبرز موهبتي في الفيلم. يجب أن يصل هذا الفيلم لأكبر المهرجانات الدولية ولَيته يحصد بعض الجوائز أيضًا. نجاح هذا الفيلم سيساعدني لإقناع أي منتج لعمل فيلمي الروائي الطويل الأول، والذي سأنتقي موضوعه بعناية لمواصلة النجاح والوصول لأبعد نقطة نجاح مُمكنة.

قررتُ أن أبحث عن فكرة جديدة وأُصوِّر فيلمي القصير الأول. أثق أنني باستطاعتي أن أصنعَ ذلك الفيلم بأعلى جودة. ومع تَباعُد مِنة عني أيضًا قررت أن أنسحب تدريجيًّا من حياتها. لعلَّها تُقابل شخصًا وتُحبه. سيكون ذلك مؤلمًا للغاية ولكنني سأسعد من أجلها.

سأحتاج إلى بعض الوقت، ولكن بما أنها تشعر بحُبي لها وترفضه، فلن أفرض نفسي عليها أكثر من ذلك.

كثيرًا ما فكرت أن أترك الأمر كله. ولكنني ضعفت مع أول ابتسامة عذبة من بين شفتَيْها الجميلتين؛ لهذا فمن الآن المُعاملة ستكون بالمِثل. لا أعرف أين مِنة اليوم، وهي لا تُجيب على مكالماتي منذ الصباح. يُفترض أن نُصوِّر معًا فيديو مهمًّا لقناة مِنة. أنا أيضًا مشغولٌ وعندي عمل كثير. سأصل لفكرة فيلمي الجديد. سيكون اليوم بداية جديدة لاسم جديد وسط عُظماء السينما. لا وقت لديَّ لهُراء اليوتيوب. لا وقت لديَّ لمكالمات دون ردٍّ. لا وقت للحُبِّ. وللأسف لا وقت لمِنة مرة أخرى.

سمعت أصوات تصفيق حاد للأداء المسرحي الدرامي الذي أدَّاه عقلي في الجُملة الأخيرة. قطع ذلك التصفيقَ رنينُ التيليفون. لمحتُ اسم مِنة وأنا أُجِيب بعد أول رنة. أين أنتِ يا مجنونة؟ نُصور اليوم؟ طبعًا جاهز ومنتظرك. أراكِ بعد ساعة.

١٤

مُصطفى

انتهيت من صلاة العشاء فلم أذكر أصليتُ ثلاثًا أم أربع ركعات! وهي حالة مُزمنة على ما يبدو. أو ربما صليتُ اثنتين فقط. لا أعرف كم الساعة الآن، منذ عُدت للبيت وأنا أفكر فيما قالته لي هذه المفعوصة.

لعلَّها أصابت حين طلبتْ مني أن أكتب عن رحلتي. لكنها دون أن تدري نكَّأت جرحًا قديمًا. اعتقدت أنني نسيتُه منذ زمنٍ بعيدٍ. أو لنقُل لم أنسَهُ بل وضعتُه جانبًا. ومَن منَّا لم يُحب مِن قبل؟! الحب شعور فطري مخلوق مع الإنسان ذاته. يخرج معه من رحم أمه لتكون هي حُبه الأول. وبعدها يظل يحب لآخر يومٍ في عمره. أنا بالفعل لي قصة حب جميلة لا تزال آثارُها تُعطر أركانَ قلبي إلى اليوم. ذكرى هذه القصة تُعيد لي شبابي وسعادتي على الرغم من مرور عشرات الأعوام.

قصة قلبي الذي دقَّ لها منذ خمس وخمسين سنة تقريبًا. لن أجد طبيبًا ليفسر لي كيف يتسارع نبض

قلبي كلما ذُكر اسمُها أمامي. قلبي لم يتوقف طوال اليوم منذ سألتني المفعوصة عن قصة حُبي. هي قصة لا يعرفها أحدٌ، لم أروِها من قبل. قصة مدفونة داخلي منذ عقود.

كيف أخرجتْ هذه المفعوصة سهمها من الكنانة وأصابت به قلبي بدقة مدهشة؟ الأدهى أنها ضربت لي مثلًا بقصة حُب فوق جسر، كيف فكرت في هذا المثال تحديدًا؟ لقد أصابتني في مقتل.

يبدو أن الأوان قد آنَ لأروي ما عجز لساني عن الحديث به. يمكنني أن أرويَ القصة على شكل رواية قصيرة مثلًا. بطلُها شابٌّ في العشرين من عمره يعيش في المعادي في الستينيات. خلال أحداث هذه الرواية يمكن كما اقترحت المفعوصة أن أصفَ البيوت والشوارع. أصفَ شارعنا؛ شارع القنال. حيث كانت هناك ترعة تتدفق فيها المياه الجارية. تلك الترعة- ترعة الخشاب- كانت تفصل بين بيتنا وبيت حبيبتي. لم يعد لهذه الترعة وجود الآن. أخاف أن أكتب من قلبي فأصف حبيبتي ولا يتوقف قلمي عن الوصف.

الساعة الآن السابعة والنصف. هل صليت العشاء؟ أعتقد ذلك. لعلَّ الله أن يرفع عني السهو. حدثتني نفسي أن السهو قد يكون في كلمة أو ركعة وليس في الأربع كلها. في المرة القادمة سأقوم بوضع علامة بجانب الصلاة التي أديتها في النتيجة المُعلقة فوق الحائط لأعرف أصليتُها أم لا.

أرخيتُ ستائر البيت، أحكمتُ إغلاق الباب، وأطفأت معظم الأنوار. تركت فقط ذلك الضوء الخافت المنبعث من مصباحٍ فوق مكتبي مُسلطٍ على الأوراق الفارغة القابعة أمامي، تنتظر أن تخط يدُ الفنان أجملَ قصة، بأحسن خط مُمكن.

في هدوء الليل سرحتُ بخيالي عائدًا للوراء. سألت نفسي سؤالًا بسيطًا: متى رأيتُها لأول مرة؟ وأين؟

في نادي المعادي في أواسط الستينيات. تذكرت اليوم بكل تفاصيله. والله إنني تذكرت ملابسي يومها، وتذكرت ما كانت ترتديه. تذكرت ما حدثَ يوم رأيتْ عينيها للمرة الأولى. هاتان العينان الزرقاوان

الجميلتان. كم أبحرت في محيط هاتين العينين! كم ركبت سفينة وقطعت رحلات وأمواجًا وأعاصير! وهدوءًا ودموعًا وشطًّا ونجاة. وكلما عاد البحَّار للبر، اشتاقت نفسُه للإبحار مُجددًا. الأهم والأجمل أنني تذكرت وأنا أكتب، إحساسي وقتها وكأن الأمر كله يحدث الآن ولأول مرة.

وإذا بي أقف معها ونتحدث معًا. أتذكر كل كلمة. أتذكر كلَّ حرفٍ. انطلق القلم يكتب فلم أستطع إيقافه. انهمرت القصص والمواقف التي توالت على ذاكرتي بوضوح.

ولأول مرة منذ نصيحة وجدى وجدت متعة الكتابة. لم يكن عقلي الذي يكتب، ولكن قلبي فعلَ. اختطف القلم وقال اترك هذا الأمر لي. للكتابة حلاوة لم أشعر بها من قبل في حياتي. انتقلت من ورقة لأخرى، هذه الوريقات القليلة التي هي أمامي الآن صارت أعزَّ ما أملك من الحياة. وددتُ لو وضعتها في خزانة وأغلقت عليها. ولكن ألم تكن تلك الذكريات محفوظةً بالفعل في الخزانة طوال الوقت؟

كتبت كثيرًا ليلتها وقضيت ليلة من أجمل ليالي عُمري. لا أذكر حقًّا ليلة كهذه. فجأة أثناء الكتابة، انتهيت من ورقة وطويتها جانبًا فلم أجد ورقةً جديدةً. وكأنني استيقظت من حُلم جميل عميق. كتبت ما يزيد على الثلاثين ورقة. عُدت مرة أخرى عجوزًا جالسًا فوق مقعده أمام المكتب ليلًا. لم أتبين الوقت، قمت من مكاني وأضأت أنوار البيت ونظرت إلى ساعة مُعلَّقة فوق الحائط فإذا بها تُشير إلى الثالثة صباحًا!

أين كنت منذ ست ساعات؟ كيف مرت بي هذه الساعات كأنها عشرُ دقائق دون أن أنتبه. ما زلت أشعر بسعادة بالغة رغم الدموع التي وجدتُها تنهمر من عينيَّ. الأعجب أنني حين أردت أن أُجفف الدمع زاد وشعرت معه بسعادة أكبر.

نظرت إلى كومة الأوراق التي فُوجئت أنها امتلأت. أمسكت بها ككنزٍ عزيزٍ وغالٍ. بدا خطِّي جيدًا كالعادة. كيف لم أتوقف مرةً أثناء الكتابة لأعيد فقرة أو أمحو أخرى كما كنت أفعل دائمًا؟! كيف ظلت ذاكرتي حاضرة

بهذا الشباب وهذه السرعة لاستدعاء ذكريات حسبتُها ماتت داخلي دون أن أشعر؟! كيف تذكرت ما حدثَ من نصف قرن وأنا لا أستطيع أن أتذكر ماذا أكلتُ اليوم؟!

لقد كانت تلك المفعوصة على حقٍّ، للكتابة مذاقٌ لم أتذوَّقه قبل الليلة. أمعنت النظر لأطراف الورق وقد بلَّلته دموعٌ نبعَتْ غالبًا من ذكرى الترعة القديمة في شارعنا. أو لعلَّها نبعت من بُحور عيون حبيبتي.

كانت ليلة جميلة لم أشعر فيها برغبة في النوم. وضعت الأوراق بحرصٍ شديدٍ فوق المكتب وهرولت سريعًا لأُصلِّي العِشاء قبل موعد صلاة الصبح التي أوشكتْ.

١٥

مِنة

«صباح الخير يا أجمل مُتابعين. إن شاء الله موعدنا الليلة مع فيديو هام جدًّا، تشاهدونه الليلة على يوتيوب والصفحة الرسمية على «فيسبوك». رجاء خاص لغير المشتركين أن تشتركوا معنا في القناة وتقوموا بتفعيل زر الجرس لكي تتمكنوا من مشاهدة الفيديو فورَ صدوره. موعدنا التاسعة مساءً. يوم جميل لكم جميعًا».

بداية جميلة لليوم. من المفترض أنني سأقابل زياد اليوم لتصوير حلقة من برنامجي على يوتيوب. ما زلت سعيدة بزيادة أعداد المتابعين بعد الحفلة. بدأت أفكر في محتوى الحلقة الجديدة، ربما فقط سأُجِيب على بعض تساؤلات المتابعين. سأستطلع رأي زياد عندما يستيقظ. بالتأكيد هو نائم الآن. فرصة ممتازة للانتهاء من كتابة قصص العجوز المُملة دون أن يسألني زياد عما أفعل. أنا أقدِّر اهتمامه بي، وأعرف أنه يود أن

يقترب مني أكثر، لكني سعيدة جدًّا بصداقتنا الحالية. أحيانًا زيادة القُرب تُفسد للود كلَّ قضية. كثيرًا ما رأيت انفصال الأحباب بعد أن ظنَّ الجميع أنهم سيكونون معًا إلى الأبد. لا يوجد «إلى الأبد» ولو وُجدت لكانت للأصدقاء فقط. الأحباب لا يدُومون إلى الأبد. زياد نفسه سيشعر بالملل وسيتركني يومًا ما. لا يهم، المهم أنني مُستعدة. لن يستطيع أحد أن يصدمني أو يكسرني طالما أن الخيار خياري في الأساس.

وصلتني العديد من الرسائل عبر واتساب منذ الأمس، جلست أُقلِّب فيها. لم أجد فيها شيئًا مُهمًّا عدا رسالةٍ من منير يسألني فيها عن المعالجة ويخبرني أنه رتب موعدًا للقاء مُنتج مهم. أعتقد أنني نسيت أمر «الفنكوش». طلبت من منير تأجيل الأمر لعدة أيام حيث إنني مشغولة جدًّا بالكتابة. بعد ساعات أسرعت لمقابلة زياد وسألته عن أفكار تصلُح لرواية أو لسيناريو فيلم سينمائي. أخبرني أنه هو أيضًا يبحث عن فيلمه التسجيلي أو الروائي القصير. لم أكن قد فكرت أو قررت موضوع الفيديو الذي سأُصوِّره. اقترح زياد اقتراحًا

راقَ لي للغاية؛ حدثني عن موضوع «تزوير الكتب الأصلية» وتأثيره السلبي على سوق النشر والثقافة في البلد بشكل عام. ربط بين الموضوع وبين استعدادي لكتابة ونشر كتابي الأول. اقترح زياد عليّ أن أُسجّل فيديو ترويجيًّا قصيرًا يدعو لحملة كبيرة ضد الكتب المزورة، وأن أقترح «هاشتاج» للموضوع، وأن أنشر الفيديو مع إعلاني للمتابعين عن تعاقدي مع دار النشر لإصدار روايتي الأولى.

اخترنا أن نُصوِّر الفيديو بأحد المكتبات الكبيرة وقضينا وقتًا طويلًا في كتابة سيناريو للفيديو الذي اتفقنا على ألا يزيد عن عدة دقائق. وعدني زياد بإخراج الفيديو بشكل مُبهر وبجودة كبيرة ليلفت أنظار الجميع فيقوموا بنشره.

بعد الانتهاء من التصوير عُدت إلى البيت لأُكمِل ما تبقى من كتابات العجوز المُملة. كتبت على صفحتي مرة أخرى لتنبيه الجميع لفيديو هام في التاسعة مساءً. قبل التاسعة انتهيت من كتابة جميع مقالات المعادي القديمة وميادينها وبيوتها. أحسست

بالتوهان أثناء القراءة كما أُحسُّ دائمًا وأنا أَدُور في ميادين المعادي.

سألت أمي فجأة عن أي فكرة جيدة تصلُح لفيلم. استغربت السؤال ونظرتْ إليَّ بدهشة كأنني مجنونة، فشرحتُ لها أنني أستعد للقاء منتج مهم لأناقش معه فكرة تحويل روايتي لفيلم سينمائي.

- روايتك! متى كتبتِ رواية؟

- لا، ولكني أستعد لكتابتها، بعد قليل ستَرَيْن الإعلان في فيديو مهم.

- إعلان؟

- بالفعل فقد تعاقدتُ مع دار نشر على كتابة الرواية...

كالعادة تمتمت أمي بكلمات لم أسمعها ولكني فهمت أنها تدعو لي بالشفاء. أقسمت لها إنني أستعد لكتابة رواية وفيلم.

- أنا أيضًا سأبدأ حملة كبيرة ضد نسخ الكتب

غير الأصلية.

- مِنة؟ أنا لم أركِ مرة واحدة تقرئين أيَّ كتاب، ما آخرُ كتاب قرأتِه؟

هذه المرة وجدت نفسي أُتمتِم. أنا أذكر أنني استعرتُ كتابًا من إحدى صديقاتي في الصيف الماضي بالساحل. لم أكن أذكر اسمَ الكتاب ولا المؤلف ولكنه كتابٌ جيدٌ. أنا أحب القراءة وإن لم أجد وقتًا لقراءة الكثير من الكتب. أعتقد أن ذلك سيتغيَّر. يجب أن أقرأ بشكل أكبر في الفترة المقبلة فأنا أستعد لكتابة رواية وفيلم مُهمَّيْن للغاية.

في التاسعة تمامًا صدر الفيديو كما وعدني زياد وكان مبهرًا بحق. يبدو أنه عمل لساعاتٍ طويلة من أجل هذا الفيديو القصير. أضاف موسيقى رائعة ومؤثرة وأضافها بلمسة فنان في اللحظات الصحيحة فخرج الفيديو أفضل كثيرًا مما تخيلت. بل أفضل من كل ما صوَّرت من قبل. زياد مُخرج موهوب جدًّا بالفعل. مع نهاية الفيديو شعرت بسعادة عارمة وتوقعتُ المئات

من التعليقات وتمنيت انتشارًا كبيرًا للفيديو على نطاق واسع. مع نهاية الفيديو فُوجِئت بشيء لم يفعله زياد من قبل. فقد أضاف «تترات» بسيطة لنهاية الفيديو ذكرَ فيه اسمي واسم مُؤلف القطعة الموسيقية واسمه كمُخرج لفيديو. هذه أول مرة يُذكَر فيها اسمَه. عمومًا يحق له تمامًا أن يفعل ذلك، أنا تعجَّبتُ لأنه لم يفعل ذلك من قبل.

قرَّرت أن أترك الفيديو بعد نشره، وأن أتابع التفاعل به بعد فترة. تذكرت أن لدينا مكتبة صغيرة في البيت. لجأتُ لها فوجدت بعض الكتب القديمة. منها كتابٌ لنجيب محفوظ. سحبتُ الكتابَ وجلستُ لأقرأ. حاولت بقدر الإمكان التركيزَ في الكتاب مُتجاهلة نظرات أمي المذهولة.

١٦

زياد

استغرق الأمر ساعاتٍ طويلةً لأنتهي من إخراج الفيديو بهذه الصورة. أردته عملًا استثنائيًّا. كدت أن أتأخر عن موعد نشره في التاسعة كما وعدتْ مِنة متابعيها. الموضوع مهم وتوقعت أن يَلقى صدًى واسِعًا. أردت أن يكون الفيديو بدايةً جديدةً لعلها تجذب انتباه شركات الإعلانات أو الإنتاج السينمائي. مِنة أيضًا تستحق مني الأفضل دائمًا. سعدتُ كثيرًا وأنا أراها أمامي في الفيديو أثناء المونتاج. وازدادت فرحتي حين سمعت صوتها وهي سعيدة بعد أن شاهدت الفيديو. غريبة مِنة جدًّا! أحيانًا أسأل نفسي لمَ أُحبها؟! راودتني هذه الفكرة عندما أنهت مكالمتها معي بعبارة غريبة غامضة:

- أعتقد أن نجيب محفوظ كاتب جيد بالفعل، بل هو كاتبي المُفضل.

أحيانًا يكون من الصعب محاولة فهم مِنة. ما الذي

ذكَّرها بنجيب محفوظ الليلة؟ بتُّ هذه الليلة وأنا سعيد لأني أسعدتُها. ولأول مرة تنهال عليَّ رسائل من الأصدقاء. صاحب دار النشر اتصل بي ليشكرني وطلب من العاملين في الدار أن ينشروا الفيديو على صفحة الدار. استمرت تلك الحفاوة إلى الصباح. استيقظت متأخرًا، أرسلتُ بعض الرسائل لمِنة عبر «واتساب» فلم ترُد. ها قد عادت مرة أخرى للاختفاء. وكلما حدثَ ذلك حدثتني نفسي بأن أنسى الأمر كله. كفى ما ضاع من عُمري في عذاب وشكوك وتفكير. فكرت أنه قد يكون من المُفيد أن أُقابل فتياتٍ أُخريات.

وعلى أحد مقاهى مدينة نصر، قابلتُ صديقًا مُقربًا مني. هو الوحيد الذي يعرف حُبي لمنة ويُشجعني - في أغلب الأحيان - للارتباط بها. تناقشنا كثيرًا حولَ أحوالي وحول مِنة وحول فكرة فيلمي التسجيلي. عندما علمَ أنها لا ترد عليَّ منذ الصباح نصحني بالابتعاد عنها لفترة؛ فقد تفتقدني. أثناء حديث صديقي الطويل الذي لا ينقطع، فُوجِئت برسالة غريبة من هِبة ماهر!

أعرف هبة منذ أيام المدرسة. وأعرف أن مِنة لا تحبها. وبما أن مِنة لا تحبها، فأنا أيضًا لا أحبها. الموضوع يبدو بسيطًا بالنسبة لي. هنَّأتني هبة على الفيديو الذي «أعددتُه لمِنة» على حدِّ قولها. لا أعرف لماذا استخدمتْ لفظ «أعددتُه»، أنا مخرج ولستُ مُعدًّا. طلبت مني أن نتعاون معًا في بعض الفيديوهات ووعدتني بمقابل مادي جيد. بالطبع لن أعمل مع شخص لا يعترف أصلًا أنني مُخرج. شكرتُها وجاملتُها قليلًا. أعرف أن لديها الملايين من المتابعين. تحمَّس صديقي لفكرة إخراج فيديو ترويجي آخَر لهبة ولو عن موضوعٍ آخَر. قال لي إن هذه الفكرة قد تُشعِل نيران الغيرة في قلب مِنة. عارضتُه وأخبرته أن مثل هذا العمل كفيلٌ بإنهاء كلِّ شيءٍ، فقد لا أستطيع أن أرى مِنة مرة أخرى.

طوال الوقت أحس أن مِنة تلعب معي لعبة غريبة. كأن بيني وبينها مسافة، ليست بالقريبة جدًّا فألمسها، وليست بالبعيدة فأفتقدها. كلانا مربوطٌ بحبلٍ سَميكٍ لا ينقطع. المسافة بيننا ثابتة والحبل

مَشدودٌ على آخره. كلما اقتربتُ منها قليلًا ليرتخي الحبل قليلًا، سارعتْ هي بالابتعاد لنفس المسافة لتُعيد الحبل مشدودًا كما كان. أشعر بعدها باليأس والحزن فأتراجع مُبتعدًا عنها، فإذا بالحبل يشدها في اتجاهي مرة أخرى. شعوري يؤكد لي أنها تتبعني برضاها. ولو حاولت التوقف لتوقفتْ، ولو اقتربتُ منها لابتعدتْ.

فيبقى الحبل مشدودًا طوال الوقت، وتبقى المسافة بيننا ثابتة، وأنا عاجزٌ عن التقدم أو التراجع، أو عن قطع الحبل والرحيل.

بالرغم من حُبي الشديد لمنة، ولكني متأكد أن في حياتها سِرًّا كبيرًا ولغزًا يحكم بشكل ما علاقتها معي. لُغز ربما لو تم حله لاستطعت الوصول إلى قلبها.

IV

مِنة

رائع هو شعور الإنجاز. شعرتُ بالفخر لأنني أتممت العمل للنهاية. شعرت بالسعادة وأنا أقود السيارة نحو المعادي. سأقابل العجوز للمرة الأخيرة. معي «الفلاشة» وعليها الكتابات كاملة، كما كتبها هو بخط يده. معي صورة مخطوطته ومعي جهاز الكمبيوتر الخاص بي. عدة دقائق ثقيلة فقط تفصلني عن الحصول على بقية الألفين وخمسمائة جنيه المُتفق عليها. سأحتاج لمثل هذه الوظائف الصغيرة، أو لإعلانات بسيطة عبر قناتي إلى أن يأتي ذلك اليوم الذي يكون لي ملايين المتابعين وأحصل شهريًّا على آلاف الدولارات من «يوتيوب». ما أجمل أن أشعر بالاستقلال في عملي وحياتي. يومها ستعرف أمي وحزب «الطنطات» أن الزمن قد تغيَّر بالفعل. وقد أكتب الأفلام أيضًا، لا أعرف شيئًا عن مصيري ولا أعرف لأي شاطئٍ يقذف بي الموج. لكنني على الأقل مُستمتعةٌ

بالرحلة. يومًا ما، بعد سنواتٍ طويلة، سأذكر هذه الأموال القليلة التي أسعى من أجلها الآن من كتابة مقالات مُملة لرجلٍ كبيرٍ غريبٍ، قد لا يكون موجودًا وقتها.

قابلتُه للمرة الأخيرة. قبلتُ دعوته لشرب فنجان قهوة. جعل يراجع الكتابة ويشيد بدقة نقلي للمقالات أو القصص. في النهاية شكرني كثيرًا وأثني عليّ كثيرًا وأعطاني ما اتفقنا عليه، وزاد عليه زيادة بسيطة. لم أتوقع منه أبدًا أن يَزيدني ولو جنيهات قليلة. شعرت بالذنب لأنني تأففت سابقًا منه ومن كتاباته سرًّا، بينما هو يشكرني ويُشيد بي أمام أصدقائه في النادي.

مع تكرار المقابلات صِرت أعرف معظم أصدقائه في النادي من كِبار السن. وهي مجموعة لطيفة، خفيفة الظِلّ من الأصدقاء. أحسب أنهم كانوا مُتفرقين ولكن «المعاش» والفراغ جمعهم. تخيلت كيف أن جلساتهم تلك قد تحتوي على عشرات من القصص الشيقة التي تَصلُح لأن تكون أفكارًا لأفلام أو روايات. ليتني

أستطيع أن أتخفَّى وسطهم وأتركهم للحديث بحُرية أكثر.

شُكرتُ العجوز بشدة وأصررتُ على ألا أرهقه عندما همَّ بالوقوف ليُسلم عليَّ للمرة الأخيرة. قبل أن أنصرف فاجأني: «هل تسمحين لي بطلبٍ أخير يا ابنتي؟»، تعجبتُ من سؤاله، وقبل أن أقبل أو أرفض أخرجَ عدة ورقاتٍ أخرى قليلة، مكتوبة بخطه الرائع. جعلَ لها غلافًا جميلًا مكتوبًا عليه «رسالة».

- ما هذه الأوراق؟

- كانت نصيحتكِ لي أن أكتب عن نفسي ومذكراتي. هذا ما فعلته. هذه المرة لن أسألكِ أن تكتبي هذا الكلام، أريد رأيكِ فحسب.

- أنا لن أستطيع أن أعود للمعادي كل هذه المسافة لأعيد الأوراق، هذه الأوراق تبدو أصلية مكتوبة بقلمك وبهذا الخط الرائع و...

قاطعني فجأة..

- بل مكتوبة بدُموعي ومن قلبي، ومختلفة تمامًا عما

قرأتِه من قبل. أنا لستُ متعجلًا هذه المرة. لن أرسل المخطوطة التي انتهيتِ منها لدار النشر الآن. أَعِيدي الأوراق وقتما أردتِ، ولو بَعد سنة. المهم، سأنتظر رأيكِ بأمانة ولو على الهاتف.

وعدته بأن أقرأ الأوراق، من داخلي توقعت أنها لن تكون أفضل بكثير من المخطوطة الأولى. هذه المرة تبدو الأوراق غرامية، ومع ذلك لم أهتم كثيرًا. كررت شكري وسلامي وانصرفت ومعي مبلغ بسيط يدفئ حقيبة يدي الباردة.

أثناء عودتي تلقيتُ مكالمة مُفاجِئة من هبة، هنَّأتني على الفيديو الأخير. ذكرتْ لي أنها هنأت زياد أيضًا على عمله الرائع ومستوى الإتقان في الحلقة. بعدها سألتني سؤالًا مُفاجِئًا عن منير. أرادت أن تعرف إن كنا قد تقابلنا أم لا. أخبرتها أنني لم أقابل منير ولكننا سنقابل معًا مُنتِجًا بعد عدة أيام ليطَّلع على معالجةٍ كتبتها تصلح لفيلم سينيمائي. لم أسترح أبدًا لرد فعلها، رائحة الحسد عبرت شبكات المحمول وملأت أنفي. هذه الفتاة لا تريدني أن أقابل منير وها هي

تسعى وراء زياد أيضًا. لم أفهم لمَ هنأت زياد. هل قابلته؟ هل تريده أن يصور فيديوهات لها هي أيضًا؟ وبمَ أجابها زياد على كل هذا؟

احترتَ كثيرًا، هل من الأفضل أن أتجاهل مكالماتها ورسائلها تمامًا؟ أم أتواصل معها بحذر وبطريقة دبلوماسية. قد يكون من الجيد أن أعطيها فرصةً، قد تكون صديقة جيدة، بعض الفتيات كن يُتابعنني إلى الآن بسبب صورتها معي. قد تُثبت الأيام خطأ اعتقادي أو صوابه.

شعرت بالتعب من رحلة المعادي وخصوصًا الازدحام المروري أثناء عودتي. حكيت لأمي أنني حصلت على مبلغٍ بسيطٍ من عملٍ صغيرٍ قمتُ به. أصررتُ إصرارًا شديدًا أن أدفع مساهمة مني في مصاريف البيت. رفضتْ أمي بإصرار ولكنها قبلت على مضض بعد أن رأت عنادي. لم أستطع أن أرد على مكالمات زياد أو تبرير غيابي طوال اليوم.

في حُجرتي، ألقيت أوراق الرجل جانبًا، وأسدلتُ ستائر

الحجرة ونمتُ نومًا عميقًا لم أشعر معه بالوقت.

١٨

مُصطفى

كانت ليلتي الأجمل منذ ليلتين. وها أنا أعود مرة أخرى لمكتبي ومقعدي وقلمي وأوراقي. نفس الإضاءة الخافتة التي تأخذني في ظِلالها لسنوات بعيدة مضت. انتظرت مكالمة من البنت المفعوصة طوال اليوم فلم تتصل. يبدو أن كتاباتي لم تُعجبها، يهمني جدًّا أن أعرف رأيها. في جميع الأحوال أنا مُمتن لهذه المفعوصة التي سألتني سؤالًا عابرًا فأخرجتْ أجمل ذكرياتي. يكفي أنني سأستمتع بكتابة بقية حكايتي مع حبيبتي الجميلة.

وقعَ نظري على «الفلاشة» التي حملت مخطوطة كتابي. أستطيع الآن أن أُقدِّمه لدار النشر. لا أعرف هل سيقبلونه أم أنني سأنال الرفض. أمسكت بالفلاشة أتأملها وأنا لا أعرف ما أفعل بتلك الحديدة.

قررتُ أن أواصل الكتابة على أن أستطلع رأي المفعوصة فيما كتبت فيما بعد، فرأيها سيكون مُهمًّا

للغاية.

كل ما أعرفه هو أنني عرفتُ لذة الكتابة عن ذكرياتي في تلك الليلة. هي لذة لم أعرفها من قبل. ألقيت بالحديدة بعيدًا وأمسكتُ بالقلم، وعزمتُ أن أكتب المزيد، وأن أعيش قصة حُبي مرات عديدة.

في الليلة السابقة نفدت الأوراق مني. هذه المرة أتممت الاستعداد بأكوام كثيرة من الأوراق. وعزمت أن أُتابِع الرحلةَ الممتعة بغض النظر عن رأي المفعوصة. قررتُ أن أستمر في كتابة الأحداث كما حدثتْ. فتحتْ قلبي وبأجمل الخطوط عُدت لعالم الماضي وأنا أستكملُ رسالتي.. لها.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

١٩

مِنة

يبدو أنني نِمت طويلًا. لم أشعر بنفسي تمامًا. استيقظتُ فوجدت حجرتي غارقة في الظلام. في البداية ظننتُ أننا وقت المغرب. عندما أمسكت بتلفوني فُوجئت بأن الليل انتصف. لا أعرف كيف نِمتُ كل هذا الوقت. تعجبت أن زياد لم يتصل بي أثناء نومي. لُمتُ نفسي أنني لم أرد على مكالماته طوال اليوم. أخشى أن يشعر أنني أتجاهله. أرسلت له رسالة اعتذار سريعة، قلت له كذبًا إنني ذهبت في مشوار حكومي طوال اليوم وعُدت فنمت إلى الآن. على الأقل فنصف رسالتي حقيقي. ردَّ عليَّ برسالة سريعة وحمد الله أنني بخير. كم هو طيب، دائمًا ما يُسامحني بسرعة شديدة.

شعرتُ بجوعٍ شديدٍ. بخطوات ثقيلة ذهبت للمطبخ وأكلت ما وجدت دون أن أُحدِث أيَّ جلبة؛ فقد كانت أمي نائمة. الوقت مُتأخر وأنا للأسف نِمت طوال اليوم

فلن أستطيع النوم بسهولة. فعلت كل شيء يمكن أن يُفعل. أخذتُ حمَّامًا دافئًا. عُدت لحجرتي أجفف شعري وأعتني به. عُدت أتابع تفاعُل المتابعين مع الفيديو، رددتُ على الكثير من التعليقات. صندوق الرسائل قرأتُ أغلبه، وأرسلتُ ردودًا لبعض الرسائل. عُدت لكتاب نجيب محفوظ مرة أخرى. قرأت فيه إلى أن مللت. عقارب الساعة قاربت الثالثة صباحًا.

بدأت في ذلك الوقت المتأخر من الليل في ترتيب حُجرتي. عند انتهائي لفتت أوراقُ العجوز انتباهي، قد نسيتُ أمرَ هذه الأوراق تمامًا. غلبني الفضول لأقرأ ما فيها. بما أن الليلة طويلة، فلمَ لا أقرأ بعض الأوراق؟ لو وجدتُ أنها مثل ما سبق فلن أكملها وسأقول للرجل رأيي بكل صراحة. أو لعلَّها أيضًا تكون أفضلَ مما كتبَ سابقًا.

كان الليل طويلًا ساكنًا. هدوءٌ شديدٌ مُوحِش اختلط بأرَقٍ ومَلل وفضول.

مددتُ يدي وسحبتُ الأوراق، وبدأتُ القراءة..

٢٠

مِنة

فتحت عينَيَّ بصعوبة شديدة. عقربَا ساعة الحائط كانتا تُشيران إلى بضع دقائق بعد الثانية ظهرًا. أعتقد أنني نمتُ بعد الفجر تقريبًا بعد أن انتهيت من قراءة كل الأوراق. ابتسمتُ وأنا أُلملم الأوراق المبعثرة بجواري في الفراش. تلك الأوراق التي أثَّرت فيَّ بشكلٍ كبيرٍ؛ لدرجة أنني وجدت دموعًا لا تزال في عينيَّ بعد أن نمت كل تلك الساعات. بل لعلي حلمتُ بما جاء فيها. ما زلتُ أذكر كلَّ كلمة كتبها.

هذه الأوراق الأنيقة كانت من أجمل ما قرأت في حياتي. كتبها الرجل على شكل رسالة لحبيبته. يقول إنه يريد أن يقص عليها قصةً قديمةً. ثم عاد بالزمن لستينيات القرن الماضي، وبدأ بتعريف نفسه في ذلك الوقت كشاب صغير في العشرين من عمره. طالب بكلية الهندسة جامعة القاهرة. وبأسلوب رشيق مُحبَّب، بدأ يحكي كيف قضى وقته بين رُسومه

الهندسية ومع الأصدقاء بالجامعة ونادي المعادي. أجبرني جمالُ الحكي والكتابة والخط والتصوير أن أتخيَّل ما يرويه كفيلم بالأبيض والأسود. كتابة ناعمة عذبة، وحكاية بسيطة جميلة عن فتاة رآها لأول مرة بالنادي، وكيف لفتت انتباهَه بجمالها الشديد وعينيها الزرقاوين. عرفَ بعدها أن الفتاة هي أخت صديق له. مما شجَّعه على التقرب أكثر من ذلك الصديق فصار من أقرب أصدقائه في فترة قصيرة. فأصبحا يتبادلان الزيارة. كانوا أيضًا جيرانًا بالمعادي، فالبيتان مُتقابلان وتفصلهما ترعةٌ صغيرةٌ. مُصطفى يعيش في جهة نادي المعادي، وأما صديقه فبيتُ عائلته في الجهة المقابلة، جهة شارع ٩.

حكى الرجل كيف قضى الساعات أمام شبَّاك بيته ليرى حبيبته إن أطلَّت من شُرفة منزلها أو خرجت في أي وقت. وكيف تَعلَّق قلبُه بها وصارت كلَّ حياته وملأتْ تفكيره. في الشهور التالية عرف عنها الكثير؛ فهي تصغره بعدة أعوامٍ قليلة، وكانت - عندما بدأ يتعلق بها - طالبة بالقسم الثانوي بمدرسة فيكتوريا

بالمعادي. وهي نفسها مدرسة مُصطفى وصديقه.

سحرني الرجلُ بقصته وكلماته ولم أستطع أن أنام قبل أن أنتهي من كل الأوراق! وفجأة توقف الحكي ولم أجد أوراقًا أخرى. شعرتُ أنه توقف فجأة وأردت أن أتابع فيلمي القديم المُمتع والمؤثر. كتابة الرجل واصفًا حبيبته لم أقرأ مثلها من قبل. كُتبَتْ بصدقٍ وحُبٍّ شديدَيْن. أَعدتُ قراءةَ عدة فقرات فنمتُ دون أن أشعر.

لملمتُ الأوراقَ وقُمتُ من فراشي وفي رأسي سؤالٌ واحدٌ فقط. ماذا حدثَ بعد ذلك؟ هل قابلها؟ هل تكلَّم معها؟ هل تزوَّجَها؟ أين هي الآن؟ وما مصيرُ هذا الحُب القديم؟

اتصلتُ بالرجل وتحدثتُ معه. وكأنني هذه المرة أتحدث مع شخص آخر تمامًا.

- الأوراق رائعة. أريدُ أن أعرف بقية القصة أرجوك...

- أهي أفضل مما قرأتِ لي من قبل؟

- بالنسبة لي فهي أكثر مُتعةً، أنا الآن أريد أن أرى

بيتك وبيت حبيبتك، والترعة، وكل ما ذكرت...

- ولكن هذه الأوراق ليست للنشر، هي رسالة خاصة جدًّا.

شعرت بفرحة الرجل الشديدة لسماع رأيي الذي يبدو أنه لم يكن يتوقعه. اتفقنا سريعًا على أن أكتبَ له هذه الأوراق على جهاز الكمبيوتر. أخبرني بالفعل أنه كتب المزيد، وأنه يريد أن يُتم كتابة الأوراق على شكل رسالة لحبيبته. أخبرني أنها لن تكون رواية. عرضتُ عليه الذهاب للمعادي للحصول على الأوراق الجديدة. ولكنه طلب مني أن أنتظر للغد، فوقتها سيكون قد أتم جزءًا أكبر من قصته. عرض عليَّ نفس المبلغ لكتابة هذه الأوراق أو الرسالة كما أسماها هو. وافقت دون تردُّد. لم أفكر في الأجر هذه المرة، فقط تملَّكني فضول كبير لأعرف بقية الحكاية القديمة.

بما أنني لن أذهب للمعادي اليوم، فالأفضل أن أتواصل مع زياد لتصوير فيديو جديد لقناتي، وفي الليل سأتفرغ لكتابة أوراق مُصطفى - أو رسالته كما

أسماها - على الكمبيوتر.

اتصلت بزياد عدة مرات فلم يرد. ساورني القلق، خشيت أن يكون مكروهٌ أصابه. لم يعتَدْ ألا يجيب على مكالماتي من قبل. بعد عدة محاولات رد على المكالمة بصوت حازم مُتكاسل. سألت عن حاله، فأجاب باقتضاب أنه بخيرٍ، وسألني بطريقة سخيفة عن سبب المكالمة. صدمني أسلوبُه معي، لم يسبق له أبدًا أن تحدث معي بهذه الطريقة. طلبت منه أن نلتقي للإعداد لحلقة جديدة. اعتذر بكلمات قليلة. لأول مرة يرفض أن نلتقي. شعرت بالارتباك والإحراج الشديدَيْن، لم أفهم ما يحدث. ألححت عليه أن نلتقي، وافق بعد إلحاح شديد. لا أعرف تحديدًا ما الذي حدثَ ولا سبب تغيُّر زياد المفاجئ. كل ما أعرفه أنني شعرت بضيق وقلق شديدَيْن وأنا أهرول لأطمئن عليه.

٢١

مُصطفى

شعرتُ بفرحة شديدة بعد مكالمة المفعوصة مِنة. فرحة جعلتني أهرول مرة أخرى نحو أوراقي أكتب المزيد. صارت بيني وبين الأوراق علاقة حميمة؛ فأشتاق لها وأستمتع للوقت الذي أقضيه معها. اختلاف وحيد بدأت أشعر به مؤخرًا بعد تفكير. هذه المرة، لا أُريد أن أنشر هذه الكتابات أو أن أشاركها أي شخص. هذه الكلمات كلها كُتبَتْ لإنسانة واحدة وأريدها هي فقط أن تقرأها. لعلها - إن قرأتها - تعرف مقدار حُبي لها. لا أريد أن يقرأ أصدقاءُ النادي هذه الأوراق، ولا أُريد أن أنشرَها. ولكني من كل قلبي أريد أن أتم هذه الرسالة وقد أحتاج لمِنة المفعوصة لتساعدني في كتابتها على الكمبيوتر ثم إرسالها، بعد أن أنتهي من الكتابة.

عندما سألني وجدي صباح اليوم عن كتاباتي، لم أُرِد أن أكذب عليه، أخبرته أنني ما زلتُ أكتب، ولكن الكتابة

اتخذت مُنحنى جديدًا، فصِرتُ أكتب يوميات أو خواطرَ شخصية.

بينما أستعد للقفز داخل آلة الزمن للعودة بي إلى نصف قرنٍ من الزمان، دق جرس باب الشقة. في الأغلب لا أحد يزورني. تعجبت وشعرت ببعض القلق. تركت قلمي وأسرعت نحو الباب. نظرت من عين الباب السحرية فتبينت بصعوبة أنه الحارس. ما زلتُ أحاول جاهدًا تذكُّر اسمه، سيكون من المُحرج لي جدًّا أن يشعر بأنني لا أذكر اسمَه. فجأة خطرتْ لي فكرة، ابتعدتُ خطوتين عن الباب وأنا أنادي...

- مَن بالباب؟

- أنا خليفة.

تمتمتُ في سِري وأنا أضرب جبهتي بكفي: «خليفة! خليفة... أيوة.. خليفة». فتحتُ الباب فورًا وقد تذكرتُ اسمَه. أعتقد أنني يجب أن أكتب الاسم على ورقة بجوار الباب. رحبتُ بخليفة الذي جاء للحصول على راتبه الشهري مني، بالإضافة إلى الاتفاق على موعد

تنظيف زوجته (والتي لا أعرف اسمَها والجميع يناديها بأم... لا أذكر اسمَ ابنها أيضًا). وجود خليفة وزوجته في حياتي مُهمٌّ للغاية. فهو شاب أمين جدًّا ويساعدني كثيرًا مع زوجته. هو أيضًا يُجيد الزراعة فيحافظ على الأشجار والزرع أمام البيت على أفضل حال. في المعادي بيننا وبين الأشجار أُلفَة غريبة، فهذه الأشجار جيران لنا. شارعنا الجميل يمتلئ بمئات الأشجار الجميلة الوارفة الظِّلال. وجود خليفة معي في البيت الصغير الذي خلا من أغلب قاطنيه يعني لي الأمان والراحة، وهما غاية ما يطلب مَن هو في مِثل عُمري. سألت خليفة إن كان يقرأ أو يكتب، فنفى ذلك. فسألتُه عن زوجته فأجاب بنفس الإجابة. خطرت لي فكرة جيدة لتنفيذها لكيلا أنسى اسمَيْهما!

عُدت مرة أخرى لأوراقي لأبدأ الكتابة من جديدٍ. ليلة أمس توقفت عن الكتابة عند أول تعارف شخصي بيني وبين حبيبتي. أول مرة أسمع صوتها. ظللتُ أراقبها لعدة شهورٍ وتقريبًا عرفت عنها كل شيء. ذات يوم كنت في النادي مع أخيها، وعند عودتنا مشيًا للبيت

كعادتنا، وجدت أن أخته معه، عرَّفني عليها، سلَّمت عليها كالمبهور. شعرت بكهرباء تَسري في جسدي عندما لامست كفَّها الرقيقة. هي فتاة خجولة للغاية، لا أذكر أنها قالت أي كلمة طوال العشر دقائق والثلاثين ثانية التي فصلت بين باب نادي المعادي الرئيسي والجسر الخشبي الصغير. عند هذه النقطة أتجِه أنا لبيتي، بينما يعبُر صديقي وأختُه الجسرَ للوصول إلى بيتهما.

أجمل ما في الأمر أنني بعد هذا اليوم صِرتُ أعرفها جيدًا، وصارت تعرفُني. استطعت بعد ذلك أن أُسلِّم عليها إن قابلتُها في النادي، أو أن أسألها عن أحوالها إن أجابت على الهاتف عندما كنت أتحدث قاصدًا أخاها. تعمدت أحيانًا أن أطلبه هاتفيًّا وأنا أعلم أنه ليس في البيت لأسمع صوتها العذب. لسنواتٍ طويلةٍ ظلت هي محورَ حياتي وتفكيري. لم أكن يومًا شاعرًا، ولكني كتبتُ فيها شعرًا كثيرًا.

الوجهُ من أضوائِه

بـدرُ السَّما أشـرقْ

غـرّاءُ واسـمُكِ نجمةٌ

إلاكِ لــم أعـشـقْ

عيـنـاكِ أدفـأُ مـوجـةٍ

في سـحـرِها أغــرقْ

يَجتـاحُـني فـي دهـشـةٍ

هـذا الــمَدَى الأزرقْ

شعرتُ بمشاعر لم أشعر بها من قبل، في ذلك الوقت، أرجعت الأمر وقتها لأنني أحببت للمرة الأولى. دائمًا للبدايات سِحرٌ عجيبٌ. ولكنني بعد خمسين سنة أؤكد أنه عشق حقيقي. ليس لأنه الأول أو الثاني. قد يقع المرءُ في الحب في أي وقتٍ. ليس الترتيب هو المهم، الأهم هو منزلة هذا الشخص عندك. وهذه المنزلة تعرفها بوضوحٍ بعد سنين، بعد أن تنجلي سُحُب الحب والانجذاب الأول من أمام العيون، فترى الحقيقة كاملة. كم من شخص أحسَّ بالحب الشديد وبعدها

بسنين عرفَ أنه كان أحمقَ كبيرًا!

أشعر أنني محظوظٌ لكونها «هي» تحديدًا أول مَن طرقت بابَ قلبي.

٢٢

زياد

«لماذا تُلح مِنة لتقابلني الآن وبعد أن تجاهلتني تمامًا منذ الأمس؟»، الإجابة النموذجية: «لا يهم». توقفت عن الاهتمام. أنا لا أفهم مِنة ولن أحاول أن أفهمها بعد الآن. أنا لا أفهم النساء بشكلٍ عامٍّ، فمِنة ليست استثناء على ما أعتقد. أحيانًا أشعر أنني لا أفهم أمي نفسها.

بالأمس عرفتُ خبرًا نزل عليَّ كالصاعقة.

اتصلتْ «هبة ماهر» بي مرة أخرى طالبةً الانضمام للحملة التي أطلقتُها ضد «الكتب المُزورة». تعجبت من طلبها، هي اعتبرت أنني أنا مَن أطلقت الحملة وليست مِنة، ها هي تكرر طلبها بأن نصور بعض الفيديوهات معًا وبأجرٍ مُغرٍ أيضًا! كالعادة شكرتها بودٍّ ووعدتُها بأن أفكر في فيديو جديد لنصنعه معًا.

أخبرتها أن تركيزي في ذلك الوقت مُنصبٌّ على

العثور على فكرة فيلم وثائقي أو روائي قصير لأُخرجه. طلبت مني أن تقوم ببطولة فيلمي الروائي القصير. أخبرتها أن الفيلم على الأغلب سيكون وثائقيًّا. القاهرة مدينة كبيرة، ماضيها ساحر. أريد أن أعثر على مكان قديم ارتبطَ به العشرات وأُصوِّر المكان والقصص المرتبطة به.

استرسلتُ في الحديث دون أن ألحظ عدم الاهتمام الواضح في صمتها. قاطعتني فجأة فسألتني بخبث عمَّن سيُخرج الفيلم الذي تكتبه مِنة.

- تقصدين الرواية؟

- لا، أقصد الفيلم، لقد قالت مِنة لمنير أباظة أمامي في الحفلة إن عندها مُعالجة جاهزة للفيلم.

تلعثمتُ فجأة ولم أفهم: منير أباظة! الممثل الشاب الوسيم، ومِنة! وفيلم سينمائي! أجهزتْ هبة تمامًا عليَّ عندما أخبرتني أن مِنة ومنير تبادلا أرقام الهواتف واتفقا على اللقاء، وأنهما قد يكونان معًا الآن. شعرت كالمجنون بل شعرت بالغباء الشديد. أنا الذي ارتضيتُ

من البداية أن أُضحِّي بكل شيء من أجل لا شيء. هل أنا في علاقة مع مِنة من أي نوع؟ الإجابة هي «لا». كل ما في الأمر أنها تعرف أنني أحبها وهي فقط تستغل هذا الحب للانتشار والحصول على عددٍ أكبر من المتابعين. أنا الذي شجَّعتُها على كل ذلك. ولكنها الآن وجدت ضالَّتها مع مَن هو أشهر وأكثر وسَامة. بالطبع الظهور المُتكرر مع مثل منير سيُحقق لمِنة ما تريد، ولأذهب أنا إلى الجحيم.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا ذاهِب لأقابل هبة، حيث التقينا وأمضينا بعض الوقت في التفكير في فيديو يكون مفاجأة «للسوشيال ميديا» بأكملها. وبالفعل اتفقتُ معها على الخطوط العريضة للفيديو ومَوعد التصوير! غاب عقلي تمامًا. عُدتُ إلى البيت مهمومًا ولم أستطع النوم ولا الأكل. راح عقلي يفكر في شيء واحد فقط: حياتي بعد مِنة. شعور بالإحباط والألم الشديدَيْن، والندم على قرارات خاطئة أخذتها من أجل مَن لا يُقدرني أصلًا. كل هذه المشاعر المتضاربة اختلطت وتركتني أشعر فقط بالحزن.

تظاهرت بالنوم ولا أعرف حقًّا أنمتُّ أم لا. عند الظهيرة استلقيتُ في فراشي غير راغِب في فعل أي شيء أو الحديث مع أي شخص. بعد وقتٍ طال أو قصر، رنَّ تيليفوني، وكان الاسم المكتوب: مِنة. ارتبكت، لم أدرِ ما الذي ينبغي أن أفعلَه. تجاهلتُ المكالمة، فألحَّت مِنة في الاتصال. يبدو أنها تُريد خدمة جديدة مني. أريد أن أقول لها إن هذا العصر قد مضى بلا رجعة، وإنني لن أعود ساذجًا مرةً أخرى.

عُدت أتساءل: لماذا تُلح مِنة لتقابلني الآن؟ وأين اختفت طوال اليومين الماضيين؟ وهل ما ذكرَتْه لي هبة عن موضوع فيلم منير، حقيقيٌّ؟

قابلت مِنة وفي عقلي وقلبي الكثير، ولكنني لم أستطع أن أبوح لها بما سمعت. مَن أنا لأُلومها لأنها تَجري وراء أحلامها؟ مَن أنا لأُلومها إن قابلت هذا أو ذاك؟ ليست لي أي صفة للأسف. ألجمتني الحقيقة فلُذتُ بالصمت. حاولتْ مِنة طويلًا أن تعرف ما بي، فقلت لها إنني أشعر ببعض الإرهاق.

لم يبدُ عليها أنها صدقتني. شعرتُ للحظة أن اهتمامها حقيقيٌّ. وأنها تتألم مثلما أتألم. هذا الشعورُ المُفاجِئ الغريب أربكني أكثر. شعور غريب بين الحزن العميق والسعادة الشديدة النابعة من احتمال أن يكون حَدْسي حقيقيًّا. لم أجرُؤ على سؤالها عن منير. اعتذرتُ لها وتعلَّلت بالإرهاق فودَّعتني وطلبَتْ مني أن أُطمئنَها عليَّ! لماذا تطلب مني هذا الطلب؟ ما زالت مِنة تلعب معي لعبة الحبل المشدود مرة أخرى. أبتعد فتتبعني. لا أعرف لي مفرًّا من مِنة. عُدت لغرفتي وعُزلتي وحزني. وبالفعل فقد أرسلت لي عدة رسائل ليلتها لتطمئن عليَّ. لا أُنكِر أن رسائلها أسعدتني. ولكن ما الفائدة من رسالة روتينية تُرسلها لصديق، وما أدراني أنها لم تكن مع صديقها المُمثل. الأفضل أن أبتعد وأن أقطع أنا هذا الحبلَ قبل أن يلتف حول عُنقي.

عزلت نفسي تمامًا لليلة أخرى، وفي صباح اليوم التالي صوَّرتُ الفيديو مع هبة. سيكون بداية لحياتي بعد مِنة. أحيانًا تكون العمليةُ الجراحية مُؤلمة، لكنها

حاسمة.

حاولتْ مِنة الاتصالَ بي فلم أرُد، فحاولت مرة ثانية في نفس اللحظة بإلحاح شديد. عندما فتحتُ المكالمة جاءني صوتُها صارخةً مُستغيثة:

- زياد، الحقني، تعالَ فورًا، أنا في مُشكلة كبيرة!

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

٢٣

مِنة

بتُّ ليلتي قَلِقة جدًّا على زياد. من الواضح أن غيابي عنه وعدم إجابتي على التيليفون أغضبته. حاولتْ إرسال العديد من الرسائل ليلًا وفي الصباح ولم يرُد. ذهبت إلى نادي المعادي لمقابلة الجد الرومانسي مُصطفى في الواحدة من بعد الظهر. تقريبًا لقد أصبح موعدُنا الثابت للقاء في النادي.

عزمت بعد الانتهاء من مقابلة الرجل على مقابلة زياد مرة أخرى بأي ثمن. ربما يجب عليَّ أن أُخبره بموضوع جدو مُصطفى كمال. الأمر بسيط ولم يكن هناك داعٍ لأُخفيه.

هناك في نادي المعادي، وفي الحديقة الجميلة عند مدخل النادي قابلته. كان جالسًا مع مجموعة من أصدقائه الذين صِرتُ أعرفهم وأحبهم جميعًا. همس لي الرجل في أذني ألا أتكلم أمامهم عن موضوع الأوراق وأن نُناقش ما قرأتُه بيننا. وبالفعل، بعد عدة

دقائق استأذنَّا منهم لنواصل العمل على كتاب أستاذ مُصطفى، وجلسنا معًا لنراجع ما كتبتُ على الكمبيوتر. بعد المراجعة سألني:

- يبدو من مكالمتنا أن ما كتبتُ هذه المرة أعجبكِ.

- بل أدهشني! نقلَتْني كلماتُكَ إلى عالمٍ آخر. حُبك، وَصْفُك للمعادي وللنادي ولحبيبتك، كل ذلك رائع.

- إذًا سأُكمِل الكتابة، وأعتقد أن الموضوع سيكون أقصر من كتاباتي السابقة.

ثم تناول حقيبة جلدية قديمة حمَلها معه، أخرج منها مجموعة جديدة من الأوراق مكتوبة بنفس الخط الجميل بعناية فائقة، وطلب مني البَدء فورًا في كتابتها. أحسبه أيضًا أخبرني أنه سيكتب مجموعة ثالثة وأخيرة ليُنهي هذه الرسالة. لا أعرف لمَ يُسميها الرسالة، ولمَن سيُرسلها. دارت في ذهني عشرات من الأسئلة، ولكن السؤال الأول والأهم عن حبيبته التي أَوْحَت له بكل ذلك: مَن تكون؟

- وما الفارق؟

- أُحب أن أراها...

- أكملي القراءة أولًا، ثم اسأليني عنها...

شعرتُ بالإحراج فلم أُرِد أن ألحَّ عليه. جالَ بخاطري أنها يمكن أن تكون قد تُوفيت في نهاية القصة. ومع هذه الخاطرة آثرتُ الانتظار، هو قال إن الجزء الثالث من الأوراق قد يكون الأخير. مما يعني مُقابلة أخرى وسأعرف نهاية قصة الحب المشوقة. نظرت إلى مجموعة الأوراق التي حملتُها معي بشوق شديد. سأقرؤها لأواصل رحلة حُب ذلك العجوز الوسيم الرومانسي مع حبيبته المجهولة. سألته عن الترعة والكوبري الخشبي. وليتني ما سألته.

انطلق مرة أخرى ليروي لي في حُبٍّ شديدٍ عن جنات المعادي الخضراء. أخذني إلى باب النادي، أشار لي نحو ميدانٍ يمين الباب يُدعى «ميدان سوارس» وشرح لي مسار ترعة الخشَّاب، وأنه تم ردمُها منذ زمن بعيد. فتحولتْ لحديقة صغيرة أمام بيته القديم بشارع القنال. أخبرني أنه ما زال يعيش في نفس بيته القديم الذي

وصفه في كتاباته، ولكن أغلب البيوت القديمة في المنطقة هُدمت وبُني مكانها بِنايات. بعضها جميل والأغلب قبيح.

عرضتُ على الرجل أن أصحبه لبيته في سيارتي لعلِّي أرى ذلك البيت. تردَّد قليلًا ونظر في ساعة يده. في النهاية قبلَ بعد إلحاح مني. طلبت منه أن يأخذني في جولة سريعة في الأماكن التي كتبَ عنها.

لم أستطع أن أُحرِجَه، أردتُ فقط أن أرى بيتَه القديم وبيتَ حبيبته. أما هو فكان يريد أن يُريني المعادي بأكملها. قُدتُ السيارة وهو يُشير لي نحو الطرق ويشرح لي تاريخ الشوارع والبِنايات بحُب. حاولت أن أشرح له أنني داخل متاهة وأنني من دون جهاز GPS فلن أستطيع الخروج منها أبدًا. بالطبع سألني ما هو هذا الجهاز، التقطتُ تيليفوني ورُحت أشرح له..

- تقصدين خريطة.

- هو جهاز يشرح لي كيف أتبع الخريطة من مكانٍ إلى مكان، ويستطيع أيضًا أن يُحذِّرني من الطرق ذات

الكثافة المرورية العالية.

تمتم الرجلُ بكلمات أن تلك الأجهزة صارت تفعلُ كلَّ شيء ولا تترك عملًا للإنسان ليقوم به. صبَّ غضبه على الكمبيوتر والهواتف وعلى جِيلنا كلِّه تقريبًا. وأثناء مُتابعتي قيادةَ السيارة داخل متاهات المعادي، طلب مني التوقف قليلًا عند دكان صغير بشارع ٩، مُغلق بغير لافتة. أخبرني أنه صالون صديقه كامل الحلاق الذي كَتب عنه في كتاباته الأولى. توقفت أمام الصالون المُغلق، نادى الرجلَ حارسَ البِناية وسأله عن كامل الحلاق.

- هل كامل نائم في بيته كالعادة ويظهر مرة أو مرتين في الأسبوع؟

- لا، عم كامل الله يرحمه، تُوفِّي ليلةَ أمس. ادعِي له يا حاج.

ألجمتِ المفاجأةُ الرجلَ فزاغت عيناه وكاد أن يُغشى عليه في سيارتي. أحسستُ للحظة أنه سيموت. الحارس جرى سريعًا وعاد بكوب ماء ولكن الرجل أبى أن

يشرب وبدت عليه الصدمة وبدأ يتنفس بصوتٍ عالٍ. الحارس طلب مني الإسراع به لأقرب مستشفى. راح الحارس يشرح لي الطريق نحو أقرب مستشفى وأنا مُرتبكة وخائفة. أحسست برغبة في البكاء والخوف الشديد على حياة ذلك الرجل الجالس داخل سيارتي. ودون أن أشعر اتصلتُ بزياد الذي لم يَرُد. عاودتُ الاتصال مرةً أخرى، وعندما ردَّ صرختُ فيه مُستغيثة.

٢٤

مُصطفى

لم أشعر بنفسي عند سماعي الخبر الحزين. توقعتُ موت الرجل منذ سنوات، فقد كان كبيرًا جدًّا في السن، يسبقني بالكثير من الأعوام. في آخر ثلاث سنوات قَلَّ وقتُ عمله جدًّا وارتعشتْ يده. لكني أصررت ألا أقص شعري إلا عنده. كلما ذهبت له توقعت أن أسمع خبر وفاته، ولكن ذلك لم يحدث طوال الأعوام السابقة. ما الذي حدثَ هذه المرة إذًا؟ لم أكن أصلًا ذاهبًا للصالون، ولم أكن مؤهلًا لسماع هذا الخبر في تلك اللحظة. المفاجأة صدمتني وأوجعت قلبي ولم أفهم شيئًا مما حدث بعدها.

أفقتُ فوجدت نفسي مُمدَّدًا في عيادة طبيب في الأربعينيات أو الخمسينيات من عمرِه. لا أعرف كيف جئتُ لهذا المكان وأين أنا بالتحديد. ربَّت الطبيب على كتفي وحمد الله على سلامتي. عندما تراجع الطبيبُ قليلًا وجدتُ المفعوصة تقف وراءه في ارتباكٍ واضح

ومعها شخص آخر مفعوص مثلها لا أعرفه.

سمعت الطبيب يُطمئنهم عليَّ ويكتب لهم اسم دواء مُهدِّئ. ثم التفت إليَّ وطلبَ مني الراحة في البيت لأسبوع كامل. لم أسترح عندما ذكرَ كلمة كامل مرة أخرى. دعوتُ الله للرجل في سِري.

وبمُساندة من المفعوصة وصديقها المفعوص، عُدت إلى السيارة. تولى صديقها قيادة سيارتها، ووصفت له الطريق لبيتي. تعجبت أن ذاكرتي الضعيفة تحفظ كل شوارع المعادي بهذا التفصيل، فلا أحتاج خرائط ولا أجهزة للوصول. بل إنني أيضًا أستطيع أن أعرف مواضع الكثافة المرورية أفضل من ذلك البرنامج العجيب على هاتف المفعوصة. عندما وصلنا ساعدني الحارس (الذي لا أذكر اسمَه الآن كالعادة) لصعود السلّم إلى شقتي. وللأمانة فقد تعاون الجميع إلى أن اطمأنوا أنني بحالٍ جيدٍ.

تعجبتِ المفعوصة وصديقُها الشاب من أنني أقيم وحدي. شرحت لهما باختصار أن زوجتي تُوفيت منذ

عامين، وأن أبنائي يعيشون بالخارج.

زوجة الحارس أعدَّت لي طعامَ الغداء. الشاب المفعوص أعطى الحارس مبلغًا من المال وطلب منه شراء الدواء المُهدِّئ. بدا لي ذلك المفعوص شابًّا بَشوشًا مُهذبًا، بدأت أُراقبه دون أن أعرف اسمه. وجدتُه هادئًا نحيفًا وطويلًا في العشرينيات من عُمره، ملابسه كلها سوداء، يرتدي نظارة طبية ويبدو مَيسور الحال. هل هو حبيب المفعوصة أم زميلها في الإنترنت؟ لا أعرف. ساعدني المفعوص على تغيير ملابسي والاستلقاء في سَريري وساعدتني المفعوصة في تناول طعامي الذي أعدَّته زوجةُ الحارس، قلت لها مُتحسرًا:

- قديمًا كنا نقول إن ما بقي من العمر ليس كالذي مَضى. أما الآن فأنا كمَن دخل سينما ليُشاهد فيلمًا. وبالفعل انتهى العرضُ ووقفت استعدادًا للرحيل. فقط أنتظر أن تُضاء الأنوار لأخرج. بعد وداع كل هذا الكَم من الأصدقاء والأقارب والمَعارف الذين فقدتُهم على مرِّ الطريق، أصبح رحيلي لهم طبيعيًّا، أما بقائي دونهم

فهذه هي الغُربة الحقيقية.

ظلَّ الشاب المفعوص يَدور مبهورًا بالشقة ويُدقِّق النظر في اللوحات الخطية التي ملأت جُدران البيت.

عادت المفعوصة بالدواء المُهدِّئ. عرَّفتني المفعوصة بصديقها زياد وقالت لي إنه مُخرج. استرحتُ لعمله بالإخراج. المخرج فنان، وأنا أُقدِّر الفن والفنانين، على الأقل فهو يعمل عملًا أعرفه وليس مؤثرًا مثل صديقته المفعوصة. أبدى الولد إعجابَه الشديد بديكورات البيت وبلوحاتي التي كتبتُها بخطِّي من أبيات الشعر أو الآيات القرآنية وعلَّقتُها حولي لتُؤنسني. بعض اللوحات بأسماء أبنائي وأحفادي وزوجتي الراحلة. في حُجرتي سألني عن لوحة جميلة موضوعة في مكان بارز بالحجرة وعليها اسم «نادية»، فأخبرتُه أن نادية حفيدتي الكبرى وحبيبتي. فسألني المفعوص مرةً أخرى بخجل:

- وبجوار الباب لوحة خطية صغيرة عليها أسماء: «خليفة» و«أم جمال»، هل تقصد الحارس وزوجتَه؟

ابتسمتُ رغم تعبي وأومأتُ بالإيجاب وأنا أقول:

- دائمًا ما أنسى أسماءهم، لاحت لي هذه الفكرةْ عندما علمتُ أنهما لا يُجيدان القراءة.

سألته عن الأفلام أو المسلسلات التي أَخرَجها، فأجابني بأنه يبحث عن فكرة فيلمه الأول. وأنه يُخرج برامج مِنة. يعني ذلك أنه هو أيضًا مُخرج إنترنت؟ مَن يدفع لهم مُرتباتهما؟ هل هناك مُنتج إنترنت أيضًا؟ وكيف يحصل المُنتِج نفسه على الأموال ليُنتج لهما هذه البرامج المؤثرة؟ الموضوع شديد التعقيد بالنسبة لي.

عزَّاني الولد في وفاة صديقي «كامل». قلَّلت من شأن الموضوع مُعتذرًا لهما. آسف أنني أقلقتكما وأفسدتُ يومكما، رحم الله كامل ورحم الله زوجتي والكثير من أصدقائي وآبائي وأغلب مَن عرفت.

صدقوني الموضوع صار روتينيًّا. لقد سبقوني وسألحق بهم كلهم قريبًا. أنا نفسي مُستغرب من ردة فعلي. يبدو فقط أنني فُوجئتُ بالموضوع. أنا يوميًّا أُودِّع

أصدقاء من نِسْلَّة النادي أو أقرأ أخبارَ الرحيل في صفحات الوفيات. رحمَ اللهُ الجميع.

عرفتُ بعدها أن المُهدئ الذي تناولته سيساعدني على النوم. سلمتْ عليَّ المفعوصة وهمستْ في أذني أنها ستكتبُ الجزء الثاني سريعًا، وتمنَّتْ لي الصحةَ والشفاء. طلبتْ مني ألا أُرهقَ نفسي بالكتابة، وهل طابتْ نفسي إلا بالكتابة؟ أذنتُ لهما بالرحيل، انصرفا من غُرفتي وهما يتحاوران. آخر ما سمعتُه من المفعوصة قولها له:

- تعالَ لأحكي لكَ الموضوعَ بأكمله.

٢٥

زياد

عُدت إلى البيت كشخصٍ آخر غير الذي غادره. تعجبتْ أمي من أفعالي المتناقضة؛ أقضي يومًا كاملًا مُكتئبًا بدون طعام. بعدها أُغادر البيتَ ثم أعود في قمة سعادتي.

تحت بيت العجوز بالمعادي، حكتْ لي مِنة عن مُتابعتها للرجل يوم كُنا في دار النشر. وبالفعل تذكرتُ هذا الرجل وفهمتُ لماذا بدا لي مألوفًا عندما وصلتُ لمِنة في عيادة الطبيب. عرفتُ منها القصة بالكامل عن كتاباته ورأي مِنة ولقاءاتها المتكررة معه بنادي المعادي. هي لم تكن إذًا مشغولة مع منير كما تخيَّلت.

- وماذا عن منير أباظة؟

- ماذا عنه؟

- سمعتُ أنكِ تستعدين للعمل معه في فيلم

من كتابتك!

- صحيح، فيلم الفنكوش. ألا تذكر أنني بعد الحفلة سألتكَ عن فكرة تصلح لفيلم؟

بالفعل تذكرت سؤالها. راحتِ تشرح لي أنها عرَّفتْ نفسها لمنير ككاتبة، وهو عرضَ عليها مقابلة منتج. ومنذ ذلك الحين فلا هي قابلت منير، ولا وجدت فكرة لرواية أو فيلم. شعرتُ بفرحة شديدة، لقد ظلمتُ مِنة بل وخذلتُها أيضًا. سألتني المشورة ولم أفكر معها، وعدتُها هذه المرة بفكرةٍ تصلح لأن تكون فيلمًا جيدًا ورواية أيضًا. ودَّعتُها في المعادي وتركت قلبي معها مرة أخرى بعد أن رأيت نظرة حُب وعرفان في عينَيْها الجميلتَيْن.

في طريق عودتي تلقيت اتصالًا من هبة، تسألني فيه عن حلقتها التي صورتُها. حمدتُ الله أن مِنة لم تكن معي وقتها، وطلبتُ من هبة عدة أيام للانتهاء من إخراج الفيديو بشكل لائق. أعتقد أنني وقعتُ في ورطة كبيرة لم أعرف وقتَها كيفية الخروج منها. أجَّلتْ

التفكير في الموضوع لوقتٍ لاحق.

في المساء عاودتُ الاتصال بمِنة لترتيب تصوير حلقتها الجديدة. وجدتُها مُتأثرة للغاية من كتابات الرجل حول تلك الفتاة التي أحبَّها في ستينيات القرن الماضي. سألتُها: «ومَن هي، هل هي زوجته الراحلة؟»، أجابتني: «لا أعلم، لكني لا أعتقد أنها زوجته».

طلبتُ مني مِنة أن نتقابل لنقرأ معًا الأوراق. تعجبت أن مِنة رومانسية لهذا الحد، تتأثر بقصة حُب قديمة بينما تصدني وتلعب معي ألعابًا لا أفهمها.

قابلت مِنة في أحد المقاهي. طلبنا القهوة و«براوني» الشوكولاتة التي أعشقها مع القهوة، وما إن رأت مِنة القهوة وقطعة «البراوني» حتى أوقفتني فجأة ونهتني أن ألمسها وكأن بها سمًّا. طلبت مني صارخةً أن ألقي الشوكة سريعًا ففعلت دون أن أفهم. فإذا بها تُخرج تلفونها المحمول وتلتقط صُورًا للبراوني والقهوة من عدة زوايا وسط ذهولي. ثم فاجأتني

وصوَّرت لنا صورة «سيلفي معًا». نظرتُ لها نظرة تُوحي بأنها مجنونة، أطلعتني على الصور التي كانت ظريفة بالفعل. قلتُ لنفسي إني أحب فتاة مجنونة.

راحت تضبط الصور وتنشرها عبر إنستجرام. راحت تفخر بآلاف المتابعين لحسابها وتسألني عن عدد المُتابعين عندي.

- أعتقد مائتان.

- فقط؟!

- مائتان وخمسون... مائتان وستة وخمسون.

نظرتْ لى بتعجُّب، وقالت لى إنها ستُشير لى فى الصورة مما سيزيد عدد المتابعين عندي، وراحت تقول لي إنني مُخرج مهم ويجب الاهتمام بالمتابعين. وأضافت: «وهوَّ الإنسان إيه هذه الأيام غير عدد المتابعين؟!».

منطق غريب بالفعل، البعض يُقيِّم الإنسان بالنجاح أو - رغم اعتراضي- بما يملك من مالٍ، مِنة الآن تعتقد أن عدد المتابعين هو التقييم الأدق. وأنه في أحيان

كثيرة يرتبط بالمال والنجاح أيضًا. رددتُ عليها مازحًا: «لا وانتِ ما شاء الله مليونيرة». ورُحت ألتهم قطعة «البراوني» بسرعة قبل أن تُواصل التصوير.

في المقهى روتْ لي مِنة مُلخَّص ما كتب الرجل في الأوراق وأطلعتني عليها مكتوبة على جهاز الكمبيوتر الخاص بها. راحت تُعيد قراءة بعض الفقرات معي. لهذا الرجل سِحر في الحكي جعلني أنفعل بكل حواسي مع كتاباته. تصورت حبيبته كما وصفها. تذكرت شكل بيته القديم وتخيلت الترعة والجسر الخشبي. المخرج بداخلي حدَّد «الكادرات» والإضاءة، وأضاف الموسيقى التصويرية، فشاهدت الأحداث كما حدثت من نصف قرنٍ، وكما رواها الرجل بفن ولغة سهلة بسيطة.

في الجزء الأول من الأحداث روى كيف وقعت عيناه على حبيبته للمرة الأولى. لاحظت مع مِنة أنه تعمَّد عدم ذكر اسمها في كتاباته. في الجزء الثاني روى كيف تطوَّر الأمر إلى حُبٍّ جارفٍ أفسدَ عليه حياته كلها. حكى كيف أصبحَتْ هي محور الكون بالنسبة له.

تكلم عن دراستها الجامعية وتخرُّجها. أصبح هو مهندسًا شابًّا وبدأت هي أيضًا حياتها العملية. لم يذكر شيئًا عن عملها لكنه ذكر أنها لم تعد تذهب إلى النادي، واختفت كثيرًا في سفريات حول العالم خاصة بعملها. حكى عن عيد ميلادها الذي أهداها فيه هدية بسيطة ووضع فيها أبيات من الشِّعر يصف فيها حُبه لها. يومها قرأتها ولم تُعلِّق عليها، فقط ابتسمت، ولم يفهم الرجل معنى تلك الابتسامة. عند هذه النقطة انتهتِ الأوراق.

- وماذا بعد؟

- لا أعرف، هذا كل ما كتب، هو سمَّى هذه الأوراق برسالته لحبيبته.

قرأتُ أبيات الرجل التي يتغزل فيها في جَمال عينَي حبيبته الزرقاوين. قرأتُها عدة مرات وشرحت لمنة معناها الجميل.

عيناكِ أدفأُ موجةٍ ... في سِحرِها أغرَقْ

يَجتاحُني في دهشةٍ ... هذا المَدَى الأزرقْ

أعجبتني كتابات ذلك الرجل. هو فنان بكل تأكيد، مشاعرُه أراها بوضوح في كتاباته. طلبتُ من مِنة قراءة مسودة الكتاب الذي كتبَه في البداية ولم يُعجبها. ذكرتْ لي مُحذِّرةً، أن الكتابات ليست بجمال هذه الرسالة. شعرت بأن ما كتبه حول حبيبته لمسَ قلبي، فطلبتُ من مِنة أن ترسل لي كتابات الرجل الأولى ففعلتْ.

عُدت إلى البيت وأنا أُمنِّي نفسي بسهرة طويلة مع كتابات هذا الرجل الفنان العاشق.

وبالفعل قرأتُ ما كتب طوال الليل، أتفق مع مِنة أن كتاباته عن المعادي لم تكن مُثيرةً مثل رسالته غير الكاملة. القصة دائمًا ما يكون لها وَقْع أقوى وأشد، وبخاصةٍ القصص الآتية من الماضي. ولكنني أحببت ما كتب، للرجل أسلوب كتابة لطيف ومُحبَّب. سرحتُ فيما كتب، وفكرت كثيرًا. لاحت لي فكرة رائعة احتلَّت عقلي تمامًا إلى أن رُحت في نوم عميق.

٢٦

مُصطفى

تعافيتُ سريعًا من الوعكة السريعة التي ألمَّت بي بالأمس. استيقظتُ مبكرًا اليوم، عُدت إلى شُرفتي وقهوة الصباح. أحضر لي الحارسُ الجريدة اليومية، ساعدَتْني اللوحة التي وضعتُها بالقرب من الباب على تذكُّر اسمه. قرأت نعيَ كامل في صفحة الوفيات. لم أتعرف على أحدٍ من الراحلين اليوم سِواه.

قرأتُ الجريدة بالكامل، لم يكن عندي ما أفعله سوى القراءة. قررت المشي إلى النادي. وجودي بين أصدقائي في النادي يخفف عني الآلام فأسعد بلقاء من أُحب بدلًا من الشعور بالوحدة في البيت. كنت في شبابي أقطع المسافة للنادي مشيًا في عشر دقائق، أما اليوم فقد تستغرق مني ثلاثة أضعاف هذه المدة. لا يرجع ذلك فقط للبُطء في المشي، ولكن لانتشار المباني والطرق والسيارات بعكس الوضع منذ نصف قرن.

قبل أن أغادر البيت تلقيتُ اتصالًا مُفاجئًا من المفعوصة، تريد أن تزورني مع صديقها المخرج للاطمئنان عليَّ ولسبب آخر هام. لم أستطع أن أحدد السبب. كنت أنتظر من مِنة الجزء الثاني من رسالتي لحبيبتي. لا أعرف تحديدًا ما سأفعل بهذه الرسالة. ليس عندي جهاز كمبيوتر لأرسل أيَّ رسائل. ولو اشتريتُ واحدًا، فلن أستطيع استخدامه غالبًا. أرجأتُ التفكير في هذا الشأن حتى أنتهي من الكتابة، وبعدها قد أطلبُ المساعدة مرة أخرى من المفعوصة.

استقبلتُ المفعوصة وصديقها النحيف في النادي. فاجأني المخرج أنه قرأ كتاباتي كلها، نظرت لمِنة نظرة عِتاب، طلبتُ منها المساعدة لا أن تقوم بنشر كتاباتي بين أصدقائها. لم تكن مساعدة، ولكنه عمل بأجر. أحست مِنة سريعًا بغضبي فاعتذرتْ بشدة وقالت إن زياد أعزُّ أصدقائها، وهما يعملان معًا؛ ولهذا فهي لا تُخفي عنه شيئًا. لم أفهم ما علاقة عملهما معًا بالإنترنت بكتاباتي الخاصة، وتحديدًا بالرسالة. هذه المرة وعداني ألا يُطلِعا مخلوقًا على الرسالة، تحديدًا

إلى أن أُتمَّها وأُرسِلَها.

أما النحيفُ فقد تنحنح وكأنه جاء ليطلب الزواج من ابنتي: «يا عمي جئتُ أُفاتحَك في موضوع مهم».

هل قال «أفاتحك»؟ مُقدمة غريبة لا تليق بالموضوع أو بالمكان. نظرتُ له في اندهاش: «خير يا ابني، اتفضل». أخبرني بعدها أنه قرأ مخطوطة كتابي عن المعادي القديمة، وعلى عكس رأي المفعوصة فقد أعجبَته الكتابةُ وأثَّرت فيه، وهو يرى أن المسودة تصلح (مع بعض الملاحظات والتعديلات) أن تكون كتابًا جميلاً عن المعادي. ثم أضاف العديد من كلمات الإطراء في وصف حكايتي مع حبيبتي (الرسالة). «خير يا ابني، ما هو الموضوع المهم الذي تريد أن تُفاتحني فيه؟» تنحنح مرة أخرى، وقال بشكل مباشر، أريد أن أُصوِّر فيلمًا تسجيليًّا حول صالون عم كامل رحمه الله، وأن تتحدث أنت في الفيلم من وحي ما كتبت. وأن تُسمي الفيلم بنفس الاسم الذي اخترته «في صالون الحلاق.. كانت لنا أيام».

في البداية استغربتُ من الفكرة. عُدت برأسي للوراء وكأنني أزِنُ الفكرة في رأسي. بين استحسان أن يُصور مُخرج شاب عملًا استوحاه من كتاباتي، وهو شيء جيد بالتأكيد. وبين تصوير صالون كامل بعد رحيله بأيام قليلة. وقد لا يليق أن نطلب مثل هذا الطلب من أبناء كامل بعد يومين من وفاته. استمر النحيف في ثرثرته المتواصلة واصفًا الفيلم بأنه نوع من الاحتفاء والتكريم والتأبين لعم كامل مما جعل الفكرة تَروق لي. لم يتوقف النحيفُ عن الثرثرة واستمر في رواية تصوُّره عن طول الفيلم ومَشاهده وكل تفاصيله بشكل مُبالغ فيه. رُحت أتابعه دون أن أنطق بكلمة واحدة. توقف فجأة وهو يسألني عن رأيي.

- رأيي في أي موضوع؟

- فيما قُلتُه الآن، في الفيلم.

- هذا عملُك، لا أعرف.

عاد النحيفُ للثرثرة مرة أخرى شارحًا أنه يُريدني أن أكتب معه سيناريو للفيلم، وأن يُصور معي، ومع بعض

أصدقائي من زبائن المرحوم كامل. لم أستطع أن أحسم موقفي، فاستأذنته في الانتظار لربع ساعة بعد أن خطرتْ ببالي فكرةٌ. تركتُ المخرج الثرثار مع صديقته المفعوصة وصعدت درجات سلم «الكلوب هاوس» واتجهتُ لحجرة الطاولة حيث يجلس وجدي، وهو مثلي من زبائن كامل القُدامى. مع عدم وجود شَعر أصلًا في رأسه. أعتقد أنه لن يفتقد كامل كثيرًا. ذهاب وجدي أو مَن هم مثله للحلاق فيه «إهدار للمال العام». رُحت أستشيره في الموضوع، فكَّر قليلًا ثم قال بالإنجليزية: «Why Not?» ثم أضاف: «نعتبره نوعًا من تكريم الرجل، في هذه البلاد يجب أن تموت أولًا ليتم تكريمُك».

عُدت إلى المفعوصة وصديقها فلما أعادا عليَّ السؤال، أجبت بنفس إجابة وجدي: «Why Not?»، فابتسما وعاد النحيف ليسألني: «متى نبدأ؟»، قلت له: اصبر قليلًا. بعد عدة أيام نزور أسرة كامل للعزاء ونعرض عليهم الفكرة. ولكني طلبت من النحيف ألا يتكلم خلال الزيارة وأن يترك لي ولوجدي أمر عرض الموضوع على أسرة المرحوم كامل. فردَّ النحيفُ بثقة:

«Why Not?».

في الأيام التالية زارني النحيف والمفعوصة بصورة يومية. بدأت العمل معهما على تصوُّر سيناريو للفيلم، أعددنا قائمةً قصيرةً تضمني ووجدي وحارس البناية للحديث حول كامل. بعدها بأيام اصطحبتُ وجدي وزُرنا أسرة كامل لتقديم واجب العزاء وعرضنا الموضوع على الأسرة فرحَّبَتْ. طلبنا منهم صورًا كثيرة لكامل وللصالون عبر السنين. كما استأذناهم في فتح الصالون يومًا أخيرًا للتصوير. علمتُ منهم أنهم قرروا بيع الصالون. شعرت بالحزن الشديد، ولكن موضوع الفيلم خفَّف من إحساسي. لأول مرة أستوعب معنى كلمة «وثائقي». لا أذكر أنني طوال عمري اهتممت بالأفلام الوثائقية. هناك جزءٌ كبيرٌ من عُمري وذكرياتي سيُمحَى قريبًا من الوجود، ولكنَّ هناك أيضًا مخرجًا شابًا قرر أن يُوثق هذا المكان قبل أن يختفي.

أعادني هذا الإحساس لمشهد ترعة الخشَّاب، أو القنال كما أطلق عليها في المعادي. اختفت هذه الترعة تمامًا كما اختفى الجسرُ الخشبي. صِرتُ

أتذكرهما عندما أراهما في فيلم «بنات اليوم» لعبد الحليم حافظ وماجدة. فعندما أشاهد هذا الفيلم، أشاهده فقط لأرى القنال والجسر والأشجار في تترات البداية وفي مشاهد أغنية «ظلموه». بالنسبة لي فهذا الفيلم وثائقي بالدرجة الأولى. معظم مشاهد هذا الفيلم صُوِّرت في المعادي، بين النادي وكورنيش النيل والقنال والفيلَّات والجسر. كنت طفلًا في العاشرة من عُمري حين رأيت عبد الحليم حافظ في شارعنا أثناء تصوير أغنية «ظلموه».

تحمستُ لمشاركة شابٍ مثل هذا المخرج النحيف في عملٍ. شاركتُ في كتابة السيناريو والتصوُّر العام. الحماس أعادني سنواتٍ فأحسست بخِفة حركتي وقُدرتي على القيام بعملٍ مُفيدٍ. على مدى أسبوع تقابَلْنَا جميعًا في بيتي. قابلت موسيقيًّا شابًّا عرض علينا بعض القِطَع الموسيقية القصيرة فاخترنا منها قطعة قصيرة مؤثرة. وعدنا على تطويرها وتناقش مع المخرج في تقنيات الصوت المطلوب ومُدَد القِطَع الموسيقية وغير ذلك من الأمور التي لا أفهمها.

تصوير الأفلام عمل شاق على عكس ما اعتقدت. شباب كثير شاركوا لتسجيل الصوت أو للتصوير أو ضبط الإضاءة. واجهتنا مُشكلة غريبة: الصالون صغير جدًّا وضعيف الإضاءة بالإضافة إلى وجود المرآة الكبيرة؛ مما جعل التصوير باستخدام كل هذه المعدات صعبًا للغاية. ولكن المخرج الشاب تغلَّب على هذه المشكلة بتصوير مَشاهد الصالون بكاميرا هاتف محمول حديث.

شاركتُ بالظهور في الفيلم والحديث عن ذكرياتي في الصالون. تأثرتُ كثيرًا أثناء الحديث فسقطتْ مني دموعٌ حقيقية أثناء جلوسي فوق كرسي الصالون للمرة الأخيرة. أحسبه نفس الكرسى الذى جلست فوقه لعشرات السنين بجِلده المَشقوق ولونِه الباهت.

حرصت على التواجد طَوَال أيام التصوير. الحارس أعدَّ لي كرسيًّا قريبًا من الصالون. جلست عليه وراقبت الشباب وهم يعملون في حَماسٍ، شعرت بسعادة حقيقية لهم. تعرفت عليهم جميعًا مع الوقت وبدأت أفهم من كلٍّ منهم دورَه في الفيلم. فُوجئت بكمِّ المعدات الحديثة التي يستخدمونها في التصوير

والتي لم تكن موجودة بالطبع على أيامي. وأهم هذه العناصر الجديدة بالطبع الكاميرا «الديجيتال». راح أحد الشباب، وهو مُصور الفيلم، يشرح لي مميزات الكاميرا، وأنهم صوَّروا الفيلم بتقنية 4K وهي تقنية مُتطوِّرة هذه الأيام. فهمتُ منه أنها تُعبِّر عن وضوح ونقاء وجودة الصورة عند العرض.

صوَّرنا مع «وجدي» ومع الحارس ومع أبناء كامل. حرصَ المخرج المفعوص على تصوير جميع الآلات القديمة التي استخدمها كامل رحمه الله: من المُوسَى، لماكينة قص الشعر اليدوية، لفُرشاة البودرة، وغيرها من الأشياء القديمة في الصالون.

أخبرني المفعوص أن الفيلم سيحتاجُ إلى المزيد من العمل ليُصبح جاهزًا للعرض. المفعوصة لم يكن لها دور مُحدَّد في الفيلم، ولكنها حرصت على التواجد طوال الوقت وتصوير الجميع أثناء العمل. طوال هذه الأيام، تصويرُ الفيلم أنساني أمرَ الرسالة وإتمام الجزء المُتبقي منها.

في آخر أيام التصوير اقترح المخرج على المفعوصة تصوير فيديوهات قصيرة لإعداد الفيلم لتُذيعَها على قناتها بالإنترنت. لم أفهم موضوع قناتها. هل لكل شخص قناة على الإنترنت؟ أيامنا كانت هناك قناتان فقط في التلفزيون المصري. أعرف أن هذا العدد ازداد مع الوقت، يبدو أنه وصل لقناةٍ لكل مُواطن الآن.

صوَّرتني المفعوصة معها في صورة سيلفي وهي تُشير بعلامة النصر. ودَّعتُ الجميع، وأُغلِق الصالون للمرة الأخيرة.

في البيت، عُدت مُنهكًا فقررتُ أن أغتسل ثم أنام. عندما خرجت من الحمَّام، فُوجئت بهاتفي المحمول لا يكف عن الرنين. طالعتُ الشاشة فوجدتُ أن هناك خمسَ مكالمات من ابنتي شيرين. ازدادت ضرباتُ قلبي ودعوتُ الله أن يكون الأمرُ خيرًا.

٢٧

مِنة

تجربة مُثيرة وجميلة عِشتها طوال الأسبوع مع زياد وجدو مُصطفى وصديقه وجدي الأرستقراطي خفيف الظِّل. صورت فيلمًا من قبل مع زياد أثناء دراسته بالمعهد، ولكنها ظلت تجربة بسيطة لمجموعة من الطلبة والهُواة. هذا الفيلم يختلف. هذه المرة وُلِدت الفكرة أمامي، وحملتها مع زياد لجدو مُصطفى، جلسنا معًا في ورشات عمل كثيرة. شاركتهم الأفكار واختيار المشاهد والموسيقى. يُساورني إحساسٌ كبيرٌ أن هذا الفيلم قادر على المشاركة في أكبر مهرجانات العالم.

عند انتهاء التصوير رأيت لحظة انكسار ووداع في عين الجميل مُصطفى كمال أثناء إغلاق الصالون للمرة الأخيرة. احتضن جدو مُصطفى ابن عم كامل بشكل مؤثر قبل أن ألتقط صورة جماعية لفريق العمل بالكامل. وهو فريق صغير، ولكن كلهم من الشباب

الموهوب وعلى رأسهم زياد.

في هذه الأثناء ظلَّ منير يطاردني. سألني عدة مرات عن المعالجة، فأجبته أنني ما زِلتُ «أعالج المُعالجة لتتناسب مع الطبيعة السينمائية، حيث إن الطبيعة الروائية مختلفة». أنا نَفسي لم أفهم ما كتبته له، ولكن يبدو أنه اقتنع! لا يهم الرد، المهم الإقناع. بدت لي عبارة «أعالج المُعالجة» مُقنعة ولا تصدر إلا عن روائية عتيدة ملكت جوانب الإبداع. بعدها لم يسألني منير عن المعالجة ولكنه طلبَ منِّي بوضوح الخروجَ معه. لا أشعر بأي انجذابٍ ولا أجد سببًا واحدًا للخروج معه. بل عفوًا هناك سبب واحد فقط وهو إمكَانية الوصول لمتابعين أكثر. ولكن ذلك قد يتحقق بصورة في حفلة مثلًا. لا أريد صورة خاصة لأجد الصحف كلها تربطني بمنير بعلاقة عاطفية مثلًا (ولو أن مثل هذه الأخبار قد تكون مفيدة جدًّا في زيادة عدد المتابعين والمتابعات). ولهذا لم أُرِد أن أصده أو أُشْعِره بالرفض. تعللتُ بتصوير فيلم تسجيلي ووعدتُه بالخروج معه في أقرب فرصة.

بالطبع انشغالي أثَّر بالسَّلب على برنامجي الخاص على يوتيوب، فلم أصوِّر أيَّ حلقة منذ أسبوع. وَعَدتْ المتابعين بفيديو خاص قريبًا عن موضوع الفيلم ولقطات حصرية أثناء التصوير. لكنني لم أنقطع عن نشر بعض الصور على إنستجرام يوميًّا. لوغاريتمات مواقع التواصل وخصوصًا فيسبوك وإنستجرام مُصممة بحيث تُجبرنا على ألا ننقطع عن المشاركة. لو أوقفنا المشاركة لفترة لقلَّ تواجدنا بالنسبة للمتابعين. كل ذلك تعلمته من خلال عملي في مجال السوشيال ميديا في السنوات الأخيرة.

في أحد الأيام وخلال عملنا في الفيلم ساعدت جدو مصطفى أثناء تناول الغداء. وكان سعيدًا جدًّا في ذلك اليوم. وقتها لم يكن زياد معنا، وجدتُها فرصةً سانحةً لأفتح مع الرجل موضوعَ رسالته لحبيبته.

- يبدو أنني أسأتُ تقدير كتاباتك الأولى، لم تُعجبني، ولكن زياد استخرج منها فيلمًا.

- لكن عندكِ بعض الحق، عندما بدأتُ في كتابة

الرسالة شعرتُ بمُتعة أكبر...

- مَن هي هذه الجميلة التي منحتَها كلَّ هذا الحب والمشاعر الجميلة؟

صمت الرجل ولم يَرُد. أشعر أن في الأمر سرًّا لا يريد أن يُذيعه. فكرت قليلًا ثم حاولت مرة أخرى:

- شعوري يؤكد لي أنها ليست زوجتك الراحلة، بل هي حُبٌّ أول قبل أن تلتقي مع زوجتك.

نظر لي الرجل باستغراب، ونظرتُ إليه مُعاتِبةً بإلحاحٍ شديدٍ، فأومأ برأسه مبتسمًا مُوافقًا كلامي. كما توقعت، يبدو أن الرجل أحبَّ «بنت الجيران» وانتهى الأمرُ بزواجها وبالوسادة الخالية.

- تزوجتْ رجلًا آخر غنيًّا؟

- لا لا الموضوع مُختلف تمامًا.

- المرأة ذكيةٌ، لو أحبتَها كلَّ هذا الحب لشعرتْ به، فلمَ لم تكتمل قصتُكما؟

هذه المرة نظر إليَّ طويلًا بنظرة لم أفهمها. ثم

فكر قليلًا وقال:

- انتظري حتى أكتب الجزء الأخير فتكتشفي مصيرَ هذه القصة.

وعدتُه بالانتظار، أردتُ أن أسأله عن حبيبته، هل هي على قيد الحياة؟ هل هي متزوجة؟ متى رآها آخر مرة؟ أرجأت كل هذه الأسئلة. وبالطبع حكيت كل هذه التفاصيل لزياد فهو أكثر حماسًا مني ليعرف مصيرَ شخصيات هذه القصة القديمة وكيف انتهى بهما الأمر.

نسينا الموضوع كله وانشغلنا بالفيلم، يومها حدث شيء كبير ومهم. صورة سيلفي جمعتني بجدو مصطفى في نهاية التصوير، بعد أن تركتُه وفي طريق عودتي مع زياد نشرت الصورة على قصص إنستجرام وكتبت كلمة شُكر صغيرة: «شكرًا لأجمل جد في الدنيا؛ جدو مصطفى». بعد دقائق قليلة فُوجِئت بالرجل يتصلُ بي ويسألني عن الصورة!

٢٨

مُصطفى

عاد هاتفي للرنين مرة أخرى، سارعت بالرد هذه المرة داعيًا الله أن يكون الأمرُ خيرًا. وعلى الطرف الآخر من دُبي لم تكن ابنتي شيرين هي المتحدثة بل حفيدتي الجميلة «نادية».

- جدو، كيف عرفت «مِنة صالح» يا جدو يا شقي؟

- «مِنة صالح!» مَن هي «مِنة صالح»؟

هدأتُ قليلًا فلم يكن هناك داعٍ للقلق. فهمتُ أنها تقصد المفعوصة. وتعجبتُ أن حفيدتي في دُبي تعرف هذه المفعوصة وأنا هنا لم أسمع عنها من قبل. يبدو أنها مشهورة كما قالت..

- هل تعرفينها؟

- طبعًا يا جدو، ومَن لا يعرفُها؟!

- هل تُتابعين برنامَجها على الإنترنت؟ أنا أيضًا أعرف

مُخرجَ البرنامج.

- مِنة مشهورة جدًّا يا جدو، وأنا أُحبها وأتابعُها. هل أستطيع أن أتواصل معها.

- عندما تأتين إلى مصر أعدكِ أن تقابليها كثيرًا. فقط تعالي..

شعرتُ بسعادة كبيرة. هذه أول مرة تتصل بي «نادية» منذ سنوات. دائمًا أنا مَن يطلبُها. منذ سنوات وهي بعيدة في عالمها، يبدو أنني بالصدفة لامست هذا العالم. ولكن لا يهم، المهم أن نادية تتصل بي وتفخر بي لأني أعرف هذه المفعوصة المؤثرة.

- وأين التقطتما الصورة يا جدو؟ ماذا كنتَ تفعل مع مِنة؟

- كنا نصور فيلمًا يا نادية، جدكِ سيظهر في الفيلم، وللعلم، فالفيلم تم تصويره بتقنية 4K.

ضحكت نادية كثيرًا من جُملتي الأخيرة ورقص قلبي مع ضحكاتها.

اتصلت المفعوصة فورًا ورويتُ لها ما حدثَ وأنا مُنفعل وسعيد. قلتُ لها إن نادية تعرفها وتتابعها. لو عرفتُ ذلك لطلبتُ منكِ نشر صورة لنا منذ أسابيع. ردَّت عليَّ المفعوصة بردٍّ عجيبٍ.

- بسيطة، عندما نلتقي المرة القادمة، سنعمل «لايف» على إنستجرام معًا. حفيدتكَ ستُجن وقتها.

لم أفهم ما قالته المفعوصة ولكن لو نتج عن ذلك «اللايف» مكالمة أخرى من نادية، فأنا موافق.

بعد هذا الحدث السعيد بأيام، زارتني مِنة، هذه المرة أنا الذي طلبتها. في معظم المرات السابقة هي التي حرصت على مُقابلتي من أجل العمل (كتابة مخطوطة كتابي أو الرسالة) أو من أجل تصوير الفيلم. هذه المرة أنا الذي أردتُ مقابلتها في نادي المعادي. سألتني عن بقية الرسالة. أخبرتها أنني لم أكتبها بعد. طلبت منها أن نعمل «لايف» كما وعدتني لتكلمني نادية.

- لا، انتظر، بل سأفعل أكثر من ذلك. أعطني اسم

نادية بالكامل.

أعطيتُها الاسم، بحثتْ عنه طويلًا بين متابعيها على إنستجرام. سألتني عن أربع بنات أخريات اسمهن نادية. حفيدتي الجميلة كانت هي الخامسة. أرتني الصورة، فرِحتُ جدًّا بصور نادية، راحت المفعوصة تعرضُ عليَّ صورَها كلها. أردت أن أشاهد كل الصور وأقرأ كل المكتوب على كل صورة. حياة حفيدتي بالكامل هنا. هناك عالَم كامل لا أعرف عنه شيئًا. قامت المفعوصة بمتابعة «نادية» ثم أرسلتْ لها رسالة صوتية على إنستجرام:

- يا صباح النور عليكِ يا نادية يا جميلة. أنا مع جدو مصطفى في النادي وهو بيسلِّم عليكِ، ويشرفني إننا نكون أصدقاء، أراكِ قريبًا في مصر.

مرة أخرى رنَّ هاتفي بعدها، وجاءني صوت نادية. سألتني للمرة الثانية عن سِر معرفتي بمِنة وطلبت أن تتحدث إليها. دار بينهما حوارٌ قصيرٌ. سعدتُ جدًّا بمكالمة «نادية». بعدها نصحتني المفعوصة بنصيحة

عجيبة.

- يجب أن تُنشئ صفحة إنستجرام لتتواصل مع حفيدتك!

بعد أيام أجهزَتْ المفعوصة على مبلغ ضخم جدًّا من حسابي في البنك لشراء هاتف ذكي جديد لي. لم يُعجبني اصطلاح «هاتف ذكي». كونه «ذكيًّا» فمعنى هذا أنني أنا الغبي في هذا الموضوع، وخصوصًا أن هذا الهاتف الذكي قطعًا يقوم بأعمال ذكية لا أعرف عنها شيئًا. مَن هو هذا الغبي الذي أطلق هذا المصطلح على قطعة حديد ذات شاشة كبيرة نوعًا ما؟

سحبتُ مبلغًا ضخمًا من حسابي في البنك لشراء هذا الهاتف. لا أُعاني من مشاكل مادية، فما جمعتُه خلال سنواتِ عُمري يكفيني بل ويفيض عن حاجتي. بالإضافة لمُدخراتي، فعندي معاشٌ جيدٌ وإيجار لشقتين في بيتي القديم. كلُّ ما في الأمر أنني أُفضِّل أن يكون معي من المال ما يكفي لعلاجي إن احتاج الأمر، أو أن أتركه لأولادي من بعدي. وهذا لا يعني أبدًا أن أشرب

فنجانًا من القهوة بثلاثين جنيهًا. المسألة هنا مسألة مبدأ. يندرج هذا الأمر أيضًا تحت بند «إهدار المال العام» مثل حلاقة وجدي لشعره. لم أكترث كثيرًا للسعر المُبالغ فيه، فأن يكون لديَّ هاتف ذكي مثل وجدي أو مِنة أو العالم أجمع أصبح ضرورة مُلحّة بعد أن رأيت صور نادية. كم أفتقدها! شعرت بحنين كبير عندما شاهدتُ الصور. أصبح امتلاك هذا الهاتف يعني أن أرى صورًا جديدة لنادية كل يوم، وذلك عندي أغلى من أموال الدنيا.

حرصتُ على اختيار موديل ذي شاشة كبيرة لأنه أريح لبَصري. أنشأتْ لي مِنة حساب إنستجرام وأضافتني تلقائيًّا لقائمة مُتابعيها. علَّمتني كيف أشاهد الصور وأتابع مَن أُحِبّ مُتابعته. تابعت «نادية» ووجدت شيرين وأخاها يوسف وحفيدي نوح في كندا أيضًا. الجميع موجود هناك إلا أنا. قضيت ليلة كاملة أشاهد صور «نادية» وأشير بالإعجاب (لايك) على جميع الصور. بدأتْ متابعة برنامج المفعوصة على برنامج «يوتيوب» والذي اكتشفتُ أنه برنامج أقرب ما يكون للتلفزيون الخاص

بالإنترنت. ومع مرور الأسابيع بدأتُ أفهم وأتعلم. استطعت التواصل مع نادية ومع ابني يوسف في كندا بواسطة «واتساب».

تذكرتُ عندما عشت أنا في الخليج في نهاية السبعينيات وأوائل الثمانينيات. كنت أرسل البريد في رحلة تستغرق عدة أسابيع ليصل إلى العائلة في القاهرة. ليصلنا ردهم بعد عدة أسابيع أخرى. ومع ظهور المُسجِّلات (الكاسيت) وشرائط الكاسيت الفارغة، انتشرت عادة جديدة؛ فكُنا نجمع العائلة كلها، فنسجل شريط كاسيت ساعة ونرسله مع أي مسافر إلى القاهرة. والعائلة ترسل الردَّ بالبريد أو بتسجيل شريط مُماثل لو توفر لهم الأمر. فما احتاج لشهورٍ صار الآن يحدث في ثوانٍ. أضغط على الزر وأسجِّل رسالة صوتية لنادية، فيأتيني الرد بعد دقائق أو ثوانٍ. انبهرتُ بما يحدث. أعرف أنني أكره التكنولوجيا التي غزت العالم، ولكن الآن كيف أكره ما يُقرِّب بيني وبين أبنائي وأحفادي؟ لقد صالحتُ التكنولوجيا ورضيت عنها بعد أن أعادت إليَّ «نادية» تحديدًا.

بعد عدة أسابيع جاءنا زياد وأخبرنا أن فيلمه أصبح جاهزًا للعرض. دعوت الجميع إلى منزلي، وأحضر زياد جهاز «لاب توب» وأخبرنا أن الصورة والصوت لن يكونا بالنقاء والوضوح الكافيَيْن لأن ذلك يتطلب جهاز تلفزيون حديث للعرض، ولكننا سنتمكن من مشاهدة الفيلم وإبداء أي ملاحظات.

لدهشتي، فإن الفيلم الذي عملنا عليه معًا لأسبوع، مدة عرضه لم تتجاوز ثلاث عشرة دقيقة! شاهدناه معًا فأثر فيَّ بشدة. رحمكَ الله يا كامل.

كان فيلمًا مؤثرًا. لم يتم عرض كلّ ما قلتُ عن كامل، ولكن المفعوص اختار المقاطع الهامة والمؤثرة. عندما شاهدتُ وجدي وهو يتكلم عن كامل داعبته قائلًا:

- ألم يجِد المخرج غير ذلك الأقرع ليَرثي الحلاق؟

تمنيت التوفيق لزياد، وخصوصًا أنه وعدَ بالتقديم لعرض الفيلم في المهرجانات الكبرى. مَن يدري، لعلَّني أكون ساهمت في بدايات مُخرجٍ كبيرٍ. دعوتُ له بالتوفيق.

بعد العرض سألني زياد على انفراد مرة أخرى عن بقية الرسالة وعن حبيبتي الغامضة. لا أعرف ما الذي يهمه في الموضوع. مِنة أخبرته أن هذه السيدة ليست زوجتي الراحلة. عاد يُلحُّ في سؤالي عنها فأجبته لأغلقَ الحديث عن الموضوع برمته: «لقد أعدتُ التفكير وقررت ألا أكملَ الرسالة الآن».

٢٩

زياد

كدتُ أُجَن عندما طلبَ منّي الرجل أن أنسى الموضوع بالكامل. هذا الموضوع تحديدًا لن أستطيع أن أتركه. أنا أحب مِنة منذ سنوات في صمت، وفجأة أجد جميلتي مِنة تُقحمني في قصة حب، فكيف لي أن أترك الأمر بهذه السهولة؟ فتحت لي هذه القصةُ بابًا كاملًا من الرومانسية أتاح لي للمرة الأولى أن أشعر بتفاعل مِنة الإيجابي مع قصة الحب. هذه القصة وضعتني مع مِنة في خانة واحدة حيث نهانا الرجل أن ننشر أي شيء له علاقة بالموضوع. إذًا فهو - بشكلٍ ما - سِر بيني وبين مِنة.

الأهم من كل ما فات، أن جدو مُصطفى - وهو في مثل عمري تقريبًا - أحبَّ فتاة في مثل عمر مِنة تقريبًا. ولسببٍ ما لم يُكتَب لهذه القصة النجاح. وأكبر كابوس يُؤرِّق نومي أن أستيقظ يومًا ما فأجدني عجوزًا في الخامسة والسبعين أكتب رسالة حُب لمنة التي

فقدتها للأبد. الموضوع أصبح لُغزًا بالنسبة لي. ما هي نهاية هذا الحب؟ مَن هي هذه الفتاة أو السيدة الآن؟ هل هي على قيد الحياة؟

انقبض قلبي فجأة، هل تُراها تُوفيت في حادث مثلًا، ويكتب هو رسالة لروحها؟ بدا لي سببًا منطقيًّا. إجابة هذا السؤال في الجزء الأخير من الرسالة، والذي قرر الرجل فجأة ألا يكتبه!

باختصار رأيت قصتي مع مِنة أمام عينيَّ، فقررت التمسكَ بما لديَّ من خيوطٍ. صارحتُ مِنة بكل أفكاري لأشركها مرة أخرى في الموضوع، فرحتُ فرحًا شديدًا عندما تحمَّست مِنة وبدأت تفكر معي. قالت لي إن الرجل عنيد، ولو قرَّر عدم الكتابة فلن يكتب. سألتها: «فمن أين نأتي بالإجابات». فكرتْ قليلًا ثم قالت: «من الفتاة نفسها».

فكرة تبدو منطقية ولكنها غير مضمونة. قلت لها في خبث: «في الجزء الذي قرأناه، هي لم تعلم بحُبه لها، فلو فرضنا أننا عرفناها ووجدناها، فعمَّ نسألُها؟».

صمتت طويلًا وردتْ بعدها بصوت واهن: «أعتقد أنها بالتأكيد شعرتْ به».

وهل تشعرين بي يا مِنة؟ وماذا عنكِ؟ هل تفهمين لمَ سألتُكِ هذا السؤال؟ هل تلعبين معي مرة أخرى؟

إجابتها مُريحة مُقلقة في نفس الوقت. إجابتها أن الأنثى تشعر بالحب والاهتمام. إجابتها تعني أنها تستقبلُ كل الإشارات. ولكنها لم تُرسل لي أيَّ إشارة. ولكنها في الوقت ذاته تجلس الآن معي وتناقشني باهتمام في قصة حُبٍّ بلا نهاية. أنتِ لغزٌ كبيرٌ يا مِنة، وسأعمل ما في وسعي على حلِّه.

أعتقد أن مفتاح السر قد يكون مع السيدة نفسها. فلنُعِد قراءة الأوراق أو الرسالة ونستخرج منها كلَّ ما لدينا من معلومات مُتاحة حول هذه السيدة. أعتقد أن عندنا الكثير.

تخيلتُ مع مِنة كيف ستكون الحكاية من وجهة نظر الحبيبة الجميلة المجهولة. رُحتُ أسأل مِنة بخبث، هل شعرتْ بحُب الرجل؟ ربما لم يُعجبها؟ أو ربما حدثَ

بينهما خلافٌ ما. دائمًا لكل قصةٍ وجهان، لقد عرفنا الوجه الأول وبقي أن نفهم الوجه الآخر. والأهم من الوجهين، المصير!

بين حُب الرجل لفتاته الجميلة وحُبي لمِنة تشابُه كبيرٌ، أراه بوضوح. أخشى أن يكون المصيرُ مُؤلمًا في الحالتين.

في اليوم التالي قابلتُ مِنة في نفس المقهى المعتاد. صارَ لنا مكانًا ثابتًا للقاء وأحببتُ ذلك كثيرًا. دوَّنتُ أنا بعض الملاحظات من رسالة جدو مصطفى، ودوَّنتْ مِنة ملاحظاتها استعدادًا لمناقشة ما لدينا من علامات ودلائل.

هي سيدة أصغر من الرجل بعددٍ من السنوات، بين ثلاث إلى خمس سنوات. ذلك أنها التحقت بالجامعة قبل تخرجه. فهي تقريبًا في السبعين من عمرها أو أكبر قليلًا. بالطبع هي من المعادي وعضوة بنادي المعادي وكانت تسكُن مع عائلتها في شارع القنال تقريبًا في مواجهة بيت جدو مصطفى (أو إلى اليمين

أو اليسار قليلًا)، المهم أنه يستطيع من بيته ومن شُرفته متابعة خروجها ودخولها إلى البيت.

من العلامات المُحيِّرة موضوع سفرها حول العالم. في ذلك الوقت لم تكن الشركات متعددة الجنسيات موجودة، ولم يكن السفر الكثير مُتاحًا لهذا الحد إلا في عددٍ محدودٍ من القطاعات كالسياحة أو الطيران أو الاستيراد والتصدير.

تناقشنا كثيرًا حول ملاحظاتي. زادت مِنة بعض الملاحظات الخاصة بالشكل، فهي بيضاء، رشيقة، طويلة، شعرها أسود وعيناها زرقاوان. أخبرتُ مِنة أن هذِه مواصفاتها أثناء دراستها بالمدرسة الثانوية، أما الآن فقد تكون عجوزًا، شابَ شعرُها، بدينة، مُنحنية الظهر. ظهرَ العبوسُ الشديد على وجه مِنة فجأة وهاجمتني:

- وماذا في ذلك؟ أتريد أن تقول إنها فقدَتْ جمالَها؟ وهل توقَّف الرجلُ عن حُبِّها لانحناء ظهرها أو لزيادة وزنها؟ أو لشيب شعرها؟ مَن يُحبُّها سيُحبُّها في جميع

الأحوال.

اعتذرتُ لها، ووضَّحت لها أنني لم أقصد ذلك مطلقًا. أردت أن أقول إن العلامة الحقيقية التي نبحث عنها ستكون لون عينيها. ذلك إن لم تكن تستخدم عدساتٍ لاصقةً لتغييره. لم تُبدِ مِنة أيَّ إعجابٍ بالمزحة، نظرتْ لي نظرةَ لَوْمٍ فشعرتُ بسخف ما قلتُ وعُدت لتغيير الموضوع.

- ماذا لدينا أيضًا؟

- أعتقد أننا سنصل بسهولة لاسمها من حارس بيتهم القديم أمام بيت جدو مُصطفى. وسنبحث عنها إلى أن نجدها.

- ثم؟

لم تردّ مِنة، وفكرت قليلًا، ماذا سنخبرها؟ هل نسألها عن ابن الجيران من خمسين سنة؟ بعدها قالت مِنة:

- لا يهم، دعنا نجدها ثم نُفكر في الأمر. أنا فقط أريد أن أعرف نهاية القصة.

بدا الأمر بسيطًا، ستكون البداية حتمًا من المعادي. كتبنا كل ما توصلنا إليه واتفقنا على بداية اللقاء في اليوم التالي لحل اللغز.

في المساء ظلَّت هبة تُطاردني لأرسل لها الفيديو الذي صورته معها. أرسلتُ لها رسالة طويلة أعتذر بأن الوقت لم يسمح لي بالعمل عليه وبالاعتذار. لم يُعجبها اعتذاري فهاتفتني غاضبةً ومُهددةً. راحتْ تتطاول عليَّ وتتهمني بإضاعة وقتها. لم أسترح لطريقة هبة المُتعجرفة في الهجوم عليَّ لمجرد أنني أرفض استكمال العمل معها. هددتني بفضيحة كبرى على «السوشيال ميديا». هبة تستطيع أن تفعل الكثير باستخدام مُتابعيها الذين يَزيدون عن المليون مُتابع، وبالطبع فمِنة إحداهن. آثرتُ السلامة فاعتذرتُ لها بلُطف وأخبرتها بأنني انشغلتُ بإخراج أول أعمالي السينمائية. أردتُ أن أرسل لها رسالةً ضمنية لأُذكِّرها أنني مُخرج، وقد أستعين بها لاحقًا كمُمثلة في أحد أعمالي. يبدو أنها وقعت في الفخ فهدَّأتْ كثيرًا من انفعالها وهنَّأتني بالفيلم. أخبرتُها بأنني سأرسل لها

ما صوَّرناه بالكامل وسأُرشح مُخرجًا زميلًا لي ليقوم بتجهيز الفيديو.

أرسلتُ لها الفيديوهات ليلتها واعتقدتُ بأن الموضوع انتهى عند هذا الحد، لكنني كنتُ مُخطئًا.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

٣٠

مِنة

انطلقتْ مع زياد في سيارته الصغيرة إلى المعادي. ظلَّ يثرثر كعادته طوال الطريق، أما أنا، فشغل عقلي سؤالُه بالأمس: ماذا لو وجدنا السيدة ذات العينَيْن الزرقاوَيْن. أتصوَّر أنها الآن أُمًّا وجدة ولها أبناء وأحفاد وزوج أيضًا. تصوَّرتْ نفسي وأنا أقابل سيدةً كبيرةً وأُعرِّفها بنفسي، ثم أسألُها عن جارها أيام الشباب. الأمر يبدو سخيفًا. أعتقد أن نهاية القصة سأعرفها فقط من جدو مصطفى العنيد. فقط سأطلب منه إتمام رسالته وعندها ينتهي الموضوع وينكشف السِّر.

جالت بخاطري فكرةٌ سريعةٌ. لعلَّ هذا الرجلَ أحس بحماسٍ مفاجئ لإرسال هذه الرسالة لحبيبته بعد نصف قرن. ربما شاهد فيلمًا رومانسيًّا أثَّر فيه لفترة ثم عاد لرشده. وبالطبع أنا لم أعامل أوراقَه إلا كنص أدبي مُمتعٍ وشَائِقٍ. لم أعتبرها أبدًا رسالةً حقيقيةً لحبيبة قديمة. إرسال رسالة لحبيبة قديمة بالنسبة لي فكرة

سخيفة. ثم عُدت فتذكرت رواية وفيلم «الحب في زمن الكوليرا» حيث انتظر البطلُ سنوات طويلة حتى تُوفي زوج البطلة، فطلب الزواج منها!

تُرى هل تُوفي زوج حبيبة جدو مصطفى؟ هل علمَ بهذا من صفحة الوفيات؟ هل قرأ رواية ماركيز؟

- هل قرأتَ رواية «الحب في زمن الكوليرا» يا زياد؟

- لا، ولكني شاهدت الفيلم.

- وهل أعجبك؟

- بالطبع، وترك أثرًا كبيرًا داخلي. خاصة...

أعرف زياد، سيبدأ في تحليل الفيلم والإخراج والموسيقى والتصوير والتمثيل. قاطعته فجأة:

- هل تعتقد أن زوج السيدة ذات العينَيْن الزرقاوَيْن تُوفى مُؤخرًا؟

فكَّر زياد قليلًا ولم يعرف للسؤال إجابة. وأرجأ التفكير لبعد البحث عن بيت الجيران. كنا قد وصلنا إلى المعادي وتُهنا كثيرًا في شوارعها إلى أن وصلنا شارع

القنال. الحمد لله أن الرجل لا يسكن في شارع من الشوارع ذات الأرقام. أنا لا أتذكر أيَّ أرقام. أعرف عنوان بيتي بشق الأنفس، بل وقد أنسى رقم البِناية أحيانًا.

أخيرًا وصلنا إلى منزل جدو مصطفى. أوقفنا السيارة في مكان بعيد قليلًا. ومشينا نحو المنزل. فوجئت بما لم ألتفت إليه من قبل. منزل جدو مصطفى عبارة عن بِناية صغيرة قديمة جدًّا مُكونة من ثلاثة طوابق. يسكن الرجل في الطابق الأول منها. البِنايات في الجهة المقابلة تبدو حديثة نوعًا ما. ثلاث بِنايات ارتفاعها لا يزيد على أربعة أدوار ولكنها ليست بقِدَم بِناية جدو مصطفى. تقدمنا نحو البِناية المقابلة له مباشرةً، فوجدنا حارسًا أسمر، بَشوش الوجه، في حوالي الخمسينيات من عمره. سلَّم زياد عليه وعرَّفه بنفسه، وعرَّفنا الحارس بنفسه؛ اسمه بشير. أخذ بشير ينظر لي بابتسامة غريبة وهو ينظر لي بتمعُّن. شعرت بالخجل وراجعت ملابسي، لم أكن أرتدي أي شيء مُثير أو قصير. المهم أن نظرات هذا الرجل غير مُريحة بالنسبة لي. أخبرنا بشير بأنه حارسُ هذه البِناية منذ

بُنيت. سألناه عن تاريخ بنائها فأجاب أنها بُنيت في الثمانينيات من القرن الماضي.

- وقبلها كانت هناك بِناية أخرى؟

- لا، كان بالشارع الكثيرُ من الفيلَّات الجميلة فقط.

- ألم تكن هناك بِنايات أبدًا؟

- القليل، مثل هذه مثلًا...

وأشار بشير لبِناية جدو مصطفى. إذًا يبدو أن جارته عاشت في إحدى الفيلَّات هنا. قد يكون ذلك أسهل؛ كون الفيلَّا تعيشُ فيها عائلة واحدة، بعكس البِنايات.

- هل عملتَ في حراسة الفيلَّات قبل هذه البِناية؟

هنا شعر بشير بالريبة وبدا غيرَ مُقتنع بالإجابة على أي أسئلة. وانقلب وجهُه فجأة من البشاشة للعُبوس. طلب أن يفهم الأمر أولًا. هنا ردَّ عليه زياد بسرعة بديهة:

- جدي أرسلني برسالة للبحث عن صديق قديم، وأعطاني عنوانه وأوصاني أن أُعِيد أمانة قديمة له. لا

أعرف شيئًا عن الصديق القديم إلا عنوانه وأنه عاش هنا مع أسرته وأخته.

- وما اسم هذا الصديق القديم؟

هنا سكتَ زياد، فنحن أصلًا كنا نبحثُ عن الاسم...

- للأسف جدي ترك رسالة قصيرة ولم يكتب اسمَ صديقه.

لم يقتنع بشير، ولكنني فكرت قليلًا، ألم يكن ذلك ما حدث فعلًا؟ جدنا مصطفى كتب رسالة ولم يذكر الاسم. فجأة وجد زياد حلًّا للموضوع بشكل ودِّي ونهائي. أخرج من يده بعضَ النقود، منح الحارس مائةَ جنيهٍ أعادت للرجل ابتسامته مع ارتخاء وجهه مرة أخرى. سأله زياد عن قاطني الفيلَّات قبل بناء هذه البِناية.

- أنا تحت أمركم طبعًا. أنا جئتُ إلى هنا شابًّا صغيرًا في الثمانينيات. أخي الكبير عمل حارسًا لإحدى الفيلَّات هنا، وهو مَن أتَى بي أثناء بناء هذه البِناية.

سألناه عن أخيه الأكبر، فقال إنه كبيرٌ في السن

ويعيش مع زوجته في عين شمس.

أخذنا اسم أخيه وعنوانه ورقم التيليفون. عُدنا من حيث أتينا. زياد صمَّم أن يُعيدني أولًا إلى مدينة نصر ثم الذهاب وحده لمقابلة «خضر»؛ الأخ الأكبر لبشير في عين شمس.

٣١

زياد

صُدمت حين رأيت البِنايات أمام بيت أستاذ مصطفى. اعتقدت أن المنطقة كلها مَبانٍ قديمة مثل بيته القديم الجميل. لم أسترح لنظرات وشكوك «بشير» الحارس، أشعرني بأنني لص جاء ليسرق أحد البيوت. ويَبقَى المالُ هو الحل السحري، فاتح القلوب ومُحرِّك الألسنة؛ ولهذا فقد قررتُ أن أقابل أخاه «خضر». حصلتُ من بشير على رقم تلفون «خضر». فكرتُ بالاكتفاء بمكالمة تلفونية، ولكني شعرت بأنني سأُحصل على معلوماتٍ أكثر لو استخدمتُ المال مثلما فعلت مع بشير.

أعدت مِنة إلى بيتها وشعرت بالشوق لها بعد دقائق من تركي إياها. أعدتُ سيارتي إلى البيت واستخدمت المترو للوصول إلى عين شمس. بعدها ركبت تاكسي دار معي كثيرًا إلى أن وصلنا إلى البيت في حارة صغيرة داخل عزبة بعين شمس. سألت عن

خضر فدلني بعض الصِّبية عن بيته. أخبرتني زوجته أنه في الزاوية يُصلي المغرب. تبعتُه للزاوية وصليت المغرب مع المصلين. وبعد الصلاة سألتُ عن عم خضر. أشار صبيٌّ إلى الإمام الذي صلَّى بنا. انتظرته خارج المسجد وسلمت عليه. وجهه أسمر بَشوش وشديد الشبه بأخيه، ولكنه أكبر سنًّا وذو لِحية بيضاء لها هيبة.

طلبت منه أن أعزمه على الشاي فقبل. في مقهى صغير جلسنا وعرَّفتُ نفسي له. اختصارًا للطريق ناولت خضر مائة جنيه. شكرني وأخذها بسرعة فوضعها في جيبه قبل أن يراه أحد. حكيت له أنني عرفت اسمه وعنوانه من بشير، فرحَّب بي. سألته عن المعادي والبيوت، وقلت له إن جدي عاش هناك. أخبرني أنه عمل حارسًا لفيلَّا في المنطقة طوال عشر سنوات، وكان ذلك في الستينيات والسبعينيات، قبل أن تُهدَم الفيلَّا، فانتقل إلى العمل بمدينة نصر. من الطريف أنني عرفت أنه عمل حارسًا في بِناية يسكن فيها أحد أصدقائي. ومع ذِكر الاسم تهلَّل وجهُ الرجل وذكر

صديقي بالخير. وجدتُ الفرصة سانحة فسألتُه عن الفيلَّد.

أخبرني أن الفيلا قطنتها عائلة واحدة من أب وأم وأبنائهم. الأب عمل طبيبًا، والأم لم تعمل. تُوفي الأب في أواخر الستينيات، وترك الفيلَّد للزوجة والأبناء. تزوج الأبناءُ وانفصلوا عن أمهم. أخبرني خضر أنه ظلَّ يحرسُ الأم ويخدمُها إلى أن ماتت. بعدها قرر الأبناء بيع الفيلَّد وتقسيم الثمن بينهم. عندها ترك خضر العمل وجاء بأخيه بشير ليحرس البيت المجاور.

سألته عن الأبناء، وهل بينهم ابنة؟ فنفى ذلك وقال إنهما ولدان فقط. سألته عن الفيلات المجاورة، فأكد أن الفيلَّات المجاورة سكنتها عائلات ذات أولاد وبنات، ولكنه لم يعرفهن بشكل شخصي. سألته عن فتاة صغيرة جميلة أيامها في أوائل السبعينيات. بدا عليه الخجل وابتسم وقال:

- يا بيه، المعادي مليئة بالجميلات. كلهن كُن جميلات.

رأيتُ نظرةً ماجنة في عينَيِ الرجل الكبير ذي الهيبة. أعتقد أنني لو سألته عن المزيد لزادني. ولكن لم يكن هناك شيء مُهم فيما قال. سألته عن أسماء الابنين ودوَّنت الأسماءَ عندي في دفتر صغير. سألته عن عُمر الولدين عندما هُدمت الفيلَّا، فأجاب بأنهما كانا في الخمسينيات. لو أن أحدهم على قيد الحياة، لكان اليوم في التسعين. لا أعتقد أبدًا أنني سأجدهم، ولا جدوى من المحاولة. عاودتُ السؤال عن أسماء العائلات في البيوت المجاورة. أخبرني بأنه لا يعرف أي أسماء، ولا يعرف طريقًا لحُراس الفيلَّات المجاورة.

سمعنا أذانَ العشاء. قُمت من مكاني ودفعت حساب الشاي مع بقشيش سخي لفتَى القهوة. تقريبًا لم تكن هناك فائدة تُذكَر من مقابلة خضر. بعد أن سلمت عليه ومشيت عدة خطوات، التفتُّ نحوه مرة أخرى وسألته:

- عم خضر، هل تذكر الفيلَّا المجاورة، هل عاش فيها أخ وأخت؟

- آه تقريبًا أتذكر، الفيلَّا المجاورة عاش فيها ابنٌ صغير وأخته الشابة.

وشرحَ لي مكان الفيلَّا، فعرفتُ أنها الفيلَّا المقابلة تمامًا لمنزل الجد الرومانسي.

- هل كانت جميلة؟

- يا بيه، أنا ذاهبٌ لصلاة العشاء.

- يا خضر هل كانت زرقاء العينين؟

- نعم يا بيه، كانت أجملَ واحدة في المنطقة، وعيناها زرقاوان، وأرجوك لا تسألني المزيد من الأسئلة.

- وما اسمُها؟

- لا أعرف، لم أسأل عن اسمها من قبل ولا اسم أخيها. ولو مرَّ بي مرة فبالتأكيد لا أذكره.

استأذن خضر وهرول للزاوية. قلتُ له إنني سأتصل به لو احتجت سؤالًا آخر، فأجابني وهو يبتعد:

- تحت أمرك يا بيه في أي وقت.

عُدت مرة أخرى وطلبتُ مِنة في الطريق، ورويتُ لها ما عرفت من خضر. المعلومة الوحيدة الآن أن حبيبة مصطفى كانت جارته في الفيلَّا المقابلة له تمامًا. تُرى أين أنتِ أيتها الجميلة العجوز المجهولة؟!

٣٢

مُصطفى

عُدت لروتيني اليومي مرة أخرى. في الصباح النادي وهزائم الطاولة المتوالية، وفي المساء في بيتي. في البيت قضيتُ أغلب الوقت في متابعة صور أبنائي وأحفادي على إنستجرام. مرت عدة أيام ولم تسأل عني المفعوصةُ أو صديقُها المخرج الموهوب المفعوص. أراهما قد نسياني في زحام حياتهما. إحساس مرير أن أشعر أنني أعيش على الهامش. حياة الجميع سريعة وحياتي بطيئة رتيبة. أعذرُ الجميع؛ فقد كنت يومًا شابًّا مثلَهم ألهث وراء الحياة. نظلُّ نجري طوال أعمارنا، حتى إذا وصلنا، لم نجد شيئًا. فقط ساعتها نُدرك أننا أضعنا مُتعة الطريق من أجل الوصول إلى سراب.

قلَّتِ الرسائلُ من حبيبتي نادية مع الوقت، وعادت للانشغال مع أصدقائها وحياتها. كل ذلك شجَّعني ذات ليلة للعودة إلى الكتابة. شعوري بالوحدة مرةً أخرى جعلني أقرر أن أُتمم رسالتي، وأن أكتب آخر جزءٍ من

قِصة حُبي القديمة. للمرة الأخيرة أريد أن أعيش هذه المشاعر، أريد استرجاعها كما شعرت بها وقتها. لا أعرف هل سأنقطع عن الكتابة بعدها أم سأكتب قصة أخرى من حياتي الطويلة. على الأقل ستكون عندي فرصة أخيرة لأقابل المفعوصة، أعتقد أنها ستساعدني في كتابة ما بقي من الأوراق.

عُدت لنفس الطقوس: ليلة هادئة، ضوء المكتب، موسيقى هادئة. في الجزء الثاني توقفت عند ابتعادنا بسبب عملي وعملها وكثرة سفرها. في الجزء الأخير، أعود سنواتٍ إلى الوراء لذكرى يومٍ لا أنساه أبدًا. هذا اليوم أحسبه مُفترقًا للطرق في حياتي كلها. أحسب أن حياتي سارت على النحو المُقدَّر لها بسبب ذلك اليوم. أحيانًا يمكن لحدث بسيط جدًّا أن يُغير حياة إنسان. قد تتغير حياتُك كلها بسبب كلمة واحدة قُلتها، أو كلمة لم تقلها.

صديقي فارس؛ هو أحد أبطال ركوب الخيل في نادي المعادي. وقتها ضم النادي مِضْمارًا لركوب الخيل ومُدربين وبطولات. في عصر أحد الأيام بالنادي مع

صديقي قبل خمسين سنة. عند موعد عودتنا من النادي، اضطر صديقي للانتظار في النادي لتأخر مُدرِّبه في ذلك اليوم. طلبَ منِّي أن أصطحب أخته للبيت. وقتها كنت طالبًا بكلية الهندسة، وكانت هي في أوَّل سنةٍ جامعية. طِرتُ من الفرحة، لأول مرة سأمشي معها وحدنا، سنتكلم وحدنا. سنعبر الطرق بين المزارع الخضراء والأشجار وحدنا. سنتحدث كثيرًا. خمس عشرة دقيقة في الجنة ومع أجمل بنات الحُور.

أكد عليَّ صديقي بألا أتركَها إلا عند باب بيتهم، أخبرته بأني بالطبع «لن أتركها أبدًا». قصدتُ الكلمة حرفيًّا وقتها. المهم أنني بدأت أجمل خمس عشرة دقيقة في حياتي. وتحدَّثْنَا. لا أذكر أيَّ كلمةٍ مما قلنا. فقط أذكر أنني تباطأتُ في المشي. عندما اقتربنا من بيتي، احتجتُ يومها لعبور ذلك الجسر الخشبي القديم إلى بيتها. بينما كنا نعبر الجسر وقفنا فوقه. لأول مرة أشعر أنها لا تريد أن تتركني وتعود إلى بيتها. استجمعتُ شجاعتي وهممتُ أن أقول لها إنني «أحبها». وقفَتْ الكلمةُ على طرف لساني ولم أنطق.

حاولت مرة أخرى ولم أستطع. فكرت أنها خيانةٌ لثقة أخيها فيَّ. قلتُ لنفسي إن الفرص ستأتي كثيرًا. لا داعي للدخول في مشكلةٍ معَ أهلها ومع صديقي. صمتَتْ هي الأخرى. قضينا دقيقة ننظر إلى وجهَيْنا الصامتَيْن على صفحة المياه. دقَّ قلبي بعنف. اهتزت أشجار الكافور الضخمة بفعل الرياح الخفيفة وكأنما تدعوني لأعترف بما في قلبي. استنشقت رائحة الكافور المحببة فخدرتني فلم أرد لهذه الوقفة أن تنتهي أبدًا. أكاد أشعر أنني مازلت هناك، أشعر بنفس الشعور وأشم نفس الرائحة.

يبدو أنها شعرت أنني لن أتكلم، فكسرت الصمت وطلَبت مُواصلة السير. أفقت بعد دقائق قليلة وقد ودَّعتني شاكرةً واختفت داخل بيتها. ذلك الموقف يُفسر لماذا أشعر بالألم والحنين عندما أشاهد ذلك الجسر الخشبي نفسه في تترات فيلم «بنات اليوم» أو عندما يُغني عبد الحليم حافظ «ظلموه».

أذكر ان ابني يوسف ذات يوم رآني والدموعُ تترقرقُ في عينَيَّ وأنا أشاهدُ عبد الحليم حافظ يُغني تلك

الأغنية. لعلَّه اعتقد أن كلمات الأغنية هي سببُ دموعي، لكني لم أركز أبدًا في كلمات هذه الأغنية، طوال عمري، ارتبطتْ هذه الأغنية بالجسر، وبتلك اللحظة السحرية التي توقف فيها الزمن على شاب وفتاة جميلة فوق جسر خشبي لم يَعُد له وجود.

ومرت الأيام، ورُدمت الترعة، واختفى الجسر، وهُدمتْ فيلَّا صديقي وأخته الجميلة. تغير المكان والزمان وبقيتِ الذكرى الجميلة. ربما لو صارحتُها في تلك اللحظة لكنتُ في مكانٍ وحالٍ آخرين. ومع ذلك فأنا لا أشعر الآن بالندم، كنتُ مراهقًا قليلَ الخبرة. لم يكن من المُقدَّر لي أن أكون معها. وأنا راضٍ عن حياتي كما هي. فقط أشعر بالشوق لهذه اللحظة الجميلة، وما الحياةُ إلا لحظات جميلة.

عندما انتهيتُ من الكتابة وجدتُ عينَيَّ مليئتَيْن بالدموع. مضت عليَّ ساعات وأنا في هذه الحالة. تركتُ نفسي في سعادتي ونشوتي، فلقد تعلمتُ الدرس مؤخرًا، لعلي لا أكتب مثل هذه الكلمات مرة أخرى، أو أشعر بمثل هذا الشعور.

في الصباح أرسلتْ رسالةَ مُعاتبةٍ للمفعوصة. أخبرتُها أنني انتهيتُ من آخر جزء من الرسالة. لم أُرِد أن أتصل بها، فقد تمنيتُ أن تتصل بي هي. قررتُ ألا أفرض نفسي عليها، يكفي أنها ساعدتني على التواصل مع أبنائي. لا أريد أن أكون عبئًا ثقيلًا على أحد في أواخر أيامي.

أرسلتْ الرسالة فرنَّ هاتفي بعدها بلحظاتٍ، اعتذرَت المفعوصة عن تقصيرها، وأخبرتني أنها ستراني اليوم في النادي في موعدنا المعتاد؛ الواحدة بعد الظهر.

في موعدها جاءت المفعوصة وحدها، هذه المرة وصلَتْ قبل موعدها. احتضنتني في شوقٍ وكررَتْ الاعتذارَ فقبلتُ أسفَها ببساطة وهوَّنتُ من الأمر. ناولتها الأوراقَ وطلبتُ منها أن تكتبها ثم تضيف هذه الفقرة للجزئين السابقين بحيث تكون الرسالةُ كلها في ملف. سألتني المفعوصة:

- لمَن سترسلُ هذا الملف؟

- سأُجيبكِ قريبًا، بقيتْ في الرسالة ورقةٌ واحدة

فقط. سأكتبها بتمهُّل.

- وماذا ستكتبُ في هذه الورقةِ الأخيرة.

- فيها كلُّ شيء. هي الرسالةُ نفسها.

٣٣

مِنة

عُدت من عند جدو مصطفى بألغاز أكثر مما اعتقدت. قابلتُ زياد في المقهى لنقرأ معًا مجموعة الأوراق الجديدة فوجدناها مكتوبة بصدقٍ شديدٍ ولغة شاعرية. حرَّكتْ كلماتُ الرجل مشاعري فاغرورقت عيناي بالدموع. خشيت أن يلحظ زياد ذلك. حاولتُ قدر الإمكان إخفاء تأثري بما قرأت. راح عقلي يسألُ سؤالًا واحدًا: «ولكن ما الذي حدث؟ أين هي هذه السيدة الآن»، فضولٌ رهيب يجذبُني لأراها وأتأمل جمالها الذي وصفه جدو مصطفى. وما فعله الزمنُ بها. استأذنتُ من زياد للذهاب إلى دورة المياه، هناك تركتُ دموعي تنهمرُ إلى أن هدأت. أصلحت المكياج وعُدت مرة أخرى لأفكر مع زياد.

- تقريبًا لا توجد معلومات جديدة.

- أخوها بطلٌ في الفروسية.

- وها هو جدو مصطفى يؤكد لنا معلومة هدم الفيلَّد، إذًا نحن نسير في الطريق الصحيح.

جلسنا نُعيد التفكير. أخبرتُ زياد أن الرجل قال إنه سيكتب الورقة الأخيرة وفيها الرسالة. قلَّلَ زياد من أهمية الورقة.

- لقد انتظرنا الجزء الثالث طويلًا لعلَّنا نجد إجابات، والنتيجة «صفر». قد ننتظرُ فترة أطول من أجل الورقة الأخيرة. وقد لا تأتي بجديد.

تفكيرُه جاء منطقيًّا. لم يعد أمامي إلا أن أنتهي من كتابة هذا الجزء ثم أقابل جدو مصطفى الرومانسي الغامض لأُراجِع معه الملف بالكامل كما وعدتُه. أخبرتُ زياد أن نستمر في بحثنا، ولعلَّنا نجد الحبيبة المجهولة وأكتب روايتي الأولى عن «البحث عن حبيبة مجهولة» اختفتْ منذ سنين. ضحك زياد وقال لي إنها قد تكونُ ماتت أو تزوجت، هي لم تختفِ. الأمر ببساطة أننا لا نعرفها. دائمًا ما أُعجَب بطريقة زياد في شرح الأمور وتحليلها.

اتفقت مع زياد على مُواصلة البحث في المعادي في الصباح. ليلتها أتممتُ كتابة رسالة جدو مصطفى وجمعتُ كلَّ الأوراق في رسالة واحدة. راجعتُها مرات وتأكدتُ من مطابقتها لما كتب.

في الصباح مرَّ عليَّ زياد وانطلقنا إلى المعادي مرة أخرى. أصبحتْ رحلاتي إلى المعادي مألوفة بعد أن كنت لا أطيقها. بدأت الآن أتأمل الشوارع والأشجار وألاحظ البيوت القديمة. لكل بيت قديم منها حكايات وألغاز. للماضي سِحرُه وتأثيره. كل بيت قديم وكل جدار وراءه الكثير. هناك العشراتُ والمئات ممن يعيشون في بيوتهم القديمة بالمعادي، ولكل منهم ذكرياته وعالَمه مثل «كامل» الحلاق، أو العجوز الرومانسي مصطفى كمال وفيق.

اتجهنا يومها إلى مدرسة فيكتوريا. مما عرفنا أنا وزياد عنها أنها مدرسة عريقة أُسِّست في نهاية الأربعينيات كفرع لكلية فيكتوريا بالإسكندرية. وقتها اعتُبرت المدرسةُ ذات الملاعب الشاسعة من أفضل البِنايات التعليمية في العالم. استقلت المدرسةُ عن

إدارة مدرسة الإسكندرية ثم أمهما جمال عبد الناصر. الوصولُ إلى المدرسة لم يكن صعبًا؛ حيث إنها ذات مساحة كبيرة جدًّا وتتوسط المعادي تقريبًا. كنا نريد كشفًا بأسماء الطلبة والطالبات. بالتأكيد في الستينيات وفي مدرسة راقية بالمعادي الفصولُ لم تكن مُكتظة، وأعدادُ الطلاب صغيرة.

سنبحث عن اسم «مصطفى كمال وفيق» لنعرف زملاء فصله. ثم نبحثُ في أسماء الطالبات في الصفوف التالية لنبحث عن أختٍ لأحد زملاء جدو مصطفى ذي الكلمات العذبة. المشكلة أننا لم نكن متأكدين من سنة تخرجه في المدرسة. لعلَّه تخرج في حدود عام ١٩٦٢ أو ١٩٦٣ مثلًا. أما هي فلعلها خريجة سنة ١٩٦٦ أو ١٩٦٧ تقريبًا.

المدرسة مليئة بالأشجار والحدائق، مبانيها عتيقةٌ تبرزُ فيها الأحجارُ الكبيرة بشكل غير موجود في المباني الحديثة. طلبنا مقابلةَ مديرة المدرسة فعرفنا أنها مشغولة في اجتماع. انتظرناها طويلًا ولكن مع إصرارنا على لقائها قابلناها.

- هل هناك مشكلةٌ ما تُواجهُ ابنَكما في المدرسة؟

- لا، لا، لقد جئنا من أجل موضوع آخر.

- آسفة، بالفعل تبدوان أصغرَ سنًّا من أولياء الأمور، هل تُريدون تقديمَ أوراق ابنكم للحضانة؟

لا أعرف لماذا أصرَّتِ السيدةُ على أنني زوجةٌ وأم؟ هل أبدو كبيرةً في السن إلى هذا الحد؟ لو أن المديرة أصغر قليلًا في السن لعرفتني أو لكانت من المُتابعين. شرحَ لها زياد الموضوعَ باختصار. في البداية اعتقدت أننا نريدُ كشفًا بأسماء الطلاب منذ عدة سنوات...

- لا، الحقيقةُ نحن نريد كشفًا قديمًا بعضَ الشيء.

- منذ عشر سنوات مثلًا؟

- خمسين!

- خمسين سنة؟! حضرتك أنا لم أكن قد وُلِدتُ منذ خمسين سنة.. ولا أنتم أيضًا، لمَ تُريدون الكشف؟

- مم.. جدي.. جدي هو الطالبُ المثالي لعام ١٩٦٢ في المدرسة، وأنا أبحث عن صور فصله.

تأسفت المديرة بأن ملفات المدرسة ليست قديمة إلى هذا الحد. وأنه لا يوجد لديها أرشيفٌ بأسماء وصور الخريجين. حاولنا كثيرًا لكننا فشلنا. بالفعل، فإن الفترة الزمنية كبيرة للغاية. مع أنني لا أعتقد أن المديرة لم تكن قد وُلِدت بعد. ولكن ذلك الأمر لا يعنيني في شيء على أي حال!

عُدنا من المعادي كما ذهبنا. فكَّرنا كثيرًا طوال الطريق. فجأة صرخ زياد بحماس: «عندي فكرة جيدة قد تُعيدنا إلى الطريق الصحيح مرة أخرى». سأله عن فكرته باهتمام. راح يشرح لي فكرتَه فوجدتُها جيدة جدًّا بالفعل.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

٣٤

زياد

خطرت لي فكرة بسيطة، قد تقودُنا إلى طريقٍ ما، وقد نعود أدراجَنا بلا أي شيءٍ كما حدثَ من قبل. ذكر جدو مصطفى في كلامه أن حبيبته سافرت حول العالم. كيف تسافرُ فتاة صغيرة حول العالم في وقتٍ قصيرٍ بعد تخرجها من الجامعة في أوائل السبعينيات؟ بعد تفكير قصير، أعتقد أن أنسب وظيفة تُتيح لفتاة صغيرة كل هذا السفر هي العمل كمُضيفة جوية. في أوائل السبعينيات، أعتقد لم تكن هناك سوى «مصر للطَيران». لم أكن متأكدًا من وجود شركات أخرى.

اتصلتُ بخضر الحارس القديم، احتجت إلى بعض الوقت لأُذكِّره بنفسي إلى أن عرفني. سألته مرة أخرى عن الفتاة الجميلة ذات العينَيْن الزرقاوَيْن. سألته هل عملت كمضيفة جوية؟ هل رأيتَ أتوبيسًا لشركة طيران متوقفًا أمام بيتهم؟ تذكر الرجلُ بسرعة وأجاب بالإيجاب، بل وقال إنه أتوبيس مصر للطيران تحديدًا.

عظيم، ها قد أمسكتُ بطرفِ الخيط. سألته: وماذا تعرف عنها أيضًا؟ ألا تذكر أيَّ تفاصيل أخرى؟ نفى ذلك وأقسم إن ذلك هو كل ما استطاع تذكُّره.

على الأقل فقد وصلتُ لاستنتاج ناجح. الخطوة التالية أصعب. لي صديق أكبر مني بسنوات يعمل مديرًا بقسم خدمة العملاء في شركة مصر للطيران. سأطلب منه الحصول على كشف بأسماء المُضيفات سنة ١٩٧٠ أو بعدها بعدة سنوات. مِنة فكرتْ أن هذه الخطوة لن تُؤدي لأي معلومة إضافية. رأت أن الرد قد يكون كرد المدرسة مثلًا: «لا توجد كشوفٌ قديمة بأسماء الطلبة». ولو وُجِد الكشفُ فسنجد عشرات الأسماء ولن نعرف مَن هي.

عُدت للتفكير، الأمر مختلف في حالة الشركة؛ ذلك أن الموظفين والموظفات يستحقون التأمين، لو فرضنا أن موظفةً التحقت بالشركة عام ١٩٧٠ وتدرجت في المناصب حتى المعاش، فستخرج للمعاش عام ٢٠١٠. مما يعني أن الكشوف ليست قديمة إلى هذا الحد. أما بالنسبة للاسم، فأنا أعتقد أن عدد المُضيفات في

الوقت لم يكن بالعدد الكبير. لو استطاع صديقي الحصولَ على الكشف بالعناوين لأمكننا تحديد مَن منهن كُنَّ من سكان المعادي. أعتقد أن الدائرة ستكون صغيرة جدًّا. لم تُبدِ مِنة أيَّ اهتمام، وفقدَت الحماسَ وهي ترُد:

- ثم ماذا؟ سنعرفها ونقابلها ونسألها لمَ لمْ تتزوجي ابن الجيران من خمسين سنة؟

- لا أعرف، ولكنني على الأقل أريدُ أن أراها ولو من باب الفضول.

أنا أريد الموضوع كله لأن مِنة جزءٌ هام منه. لو فقدت الحماس فسأفقده أنا أيضًا. مِنة على حق، لو وصلتُ للسيدة فلن أستفيد شيئًا. شعور داخلي جاءني أن نهاية القصة بالتأكيد مع مَن فتح الباب ولم يُغلقه. مع المُحب «مصطفى كمال وفيق».

- خلاص، إن أردتِ أن ننسى الأمرَ برُمَّته سأوافق.

- لنتفق أن تكون شركةُ الطيران محاولتنا الأخيرة.

- أعدُكِ بذلك.

اتصلتُ بصديقي، وكالعادة اضطررتُ لتأليف قصة جديدة. قلت له إني أريد أن أصنع فيلمًا تسجيليًّا عن عظيمات مصر للطيران من الأجيال القديمة من قائدات ومُضيفات. وأن الفيلم سيكون مهمًّا وسيُعرض في أكبر المهرجانات. أخبرني صديقي أن مصر للطيران بها مُضيفات وقائدات منذ الأربعينيات. أحسست بالورطة. فكرتُ سريعًا للخروج من هذه الورطة:

- مُضيفة سنة ١٩٤٠ رحمها الله. أنا أبحث عن مُضيفات كبيرات، ولكن أستطيع أن أحاورهن؛ وبالتالي فإن جيل ١٩٧٠ أو ١٩٧١ أو ما بعدهما سيكون مناسبًا.

بدا عليه الاقتناع، أخبرته أنني أريد الأسماء وأرقام الهواتف والعناوين. أخبرني أن العناوين تتغير باستمرار وأرقام هواتف مصر كلها تغيرت منذ دخول شبكات المحمول قبل عشرين سنة.

كان مُحقًّا فيما قال. طلبت منه أن يبذل جهده، وبالطبع قلت له إنني سأُخصِّص شكرًا خاصًّا له في تترات الفيلم. بذلتُ كلَّ ما في وسعي لتشجيعه للقيام

بالمهمة.

طلبَ مني مُهلة عدة أيام، قلت له إننا نستعد للتصوير، أخبرته أننا قد ننتظر يومين لا أكثر لظروف الإنتاج. تكلمتُ بجدية شديدة وتقمصت الدور لدرجة أنني قلت له أن يُصعِّد الأمر لأعلى قيادات «مصر للطيران»؛ لأن الأمرَ سيخدم سُمعة الشركة العريقة. حماسي جعلني أفكر فعلًا في التصوير مع هؤلاء المُضيفات الكبيرات. وجدتُها فكرة جيدة بالفعل تستحق التفكير. سيداتٌ كبيرات طُفن حول العالم كله قبل خمسين سنة في وقت لم يكن السفر سهلًا أو مُتاحًا كما هو الحال الآن. هن بالقَطْع رائداتٌ ومُبادِرات، تُرى ما هي قصة كل واحدة منهن؟ وبخاصة هذه الجميلة المجهولة ذات العينَيْن الزرقاوَيْن.

٣٥

مِنة

أعترف أنني فقدتُ الحماس لمواصلة البحث عن حبيبة جدو مصطفى. لقد اندفعتُ قليلًا وراء الفضول لأراها، وأعرف مدى تطابُق تصوري مع صورتها الحقيقية. جدو مصطفى سيعطيني الورقة الأخيرة التي ستكشف كلّ شيء، فلا داعي للاستعجال. انتهيتُ من إعداد ملف كامل بالأجزاء الثلاثة ووضعته على فلاشة واتصلت بجدو مصطفى. اتفقتُ معه على اللقاء في موعدنا المعتاد. هذه المرة شعرتُ بالشوق للقائه. أعتبره الآن مثلَ جدي. محظوظة هي حفيدتُه الجميلة «نادية». عندما أقابل جدَّها سأرسلُ لها صوري معه لتغارَ مني. أعتقد أنها ستسعدُ جدًّا بالحياة معه أثناء دراستها الجامعية كما ذكرَ لي.

وصلتُ في موعدي فوجدتُ مفاجأة غريبة. وجدت جهاز «لاب توب» مع جدو مصطفى لأول مرة. احتضنتُه بحُبٍّ وشوقٍ وأنا أُبارِكُ له الجهازَ الجديد:

- موبايل ثم لاب توب. في المرة القادمة سأجد معكَ تابليت.

- ما هذا التابليت؟ لا، هذا آخر جهاز سأشتريه.

عرَّفني جدو مصطفى على أحد أفراد الشلة، أستاذ «سعيد»، مدير سابق بإحدى شركات البترول. عرَّفه لي جدو مصطفى كأحد رُواد العمل على الإنترنت والإيميل في مصر منذ التسعينيات. راح أستاذ سعيد ببساطة يشرح لجدو مصطفى كيفية التعامل مع جهازه الجديد. ضحكتُ بشدة من عبارة رواد الإيميل. بعد عشرين سنة من الآن سيَعرفني الناس بأني أحد أهم وأوائل رائدات إنستجرام في الشرق الأوسط. ومن رائدات يوتيوب أيضًا. أنا من الرعيل الأول. شرح أستاذ سعيد لجدو مصطفى كيف يُرسِل إيميلًا وكيف يُرفق ملفًّا. أخبرت جدو مصطفى أن الملف جاهز. اعتذر سريعًا لأستاذ سعيد وانتظر طويلًا إلى أن انصرف ثم عاد ليعتذر لي. لم يكن يريد أن يرى سعيد الملف ولا أن يقرأ ما فيه.

راجعتُ النص بالكامل مع جدو مصطفى. بعد المراجعة، نقل الملف من الفلاشة لجهازه الجديد. واطمأن لمكان الملف وطلب مني أن أُسمِّيه «الرسالة». في النهاية أثنى على عملي وأراد أن يُعطيني ظرفًا فيه بقية أجرِ الكتابة. هذه المرة رفضتُ وبإصرارٍ أخبرتُه أنه من الآن كجدّي، وأنني لن أقبل أجرًا من جدّي.

- لنعتبرها هدية.

- لا، أنتَ هديتي، ألا تريدُ أن تعتبرني مثل نادية؟

- لا طبعًا، يعلم الله أنني أحبكِ مثلها. وأتمنى أن أراكِ طوال الوقت، ولكنني أعلم أنكِ مشغولة.

- إن شاء الله ستراني ونتكلم كثيرًا.

تحدثنا عن أمورٍ كثيرة بعدها ولم أحب أن أترك الرجل. لاحظتُ أنه اليوم سيحمل جهازه المحمول معه فلن يستطيع أن يمشي إلى البيت كعادته. ساعتي أشارت إلى الثانية عصرًا أو بعدها بقليل. عرضت عليه أن أصحبه إلى بيته في سيارتي فاعتذر. قال لي إنه

سينتظر في النادي لموعد عودته المعتاد، وطلب مني أن أغادر في أي وقتٍ أحب.

سألته عن الورقة الأخيرة..

- عندي جهاز كمبيوتر الآن، وسأحاول أن أكتبها بنفسي!

- ألا تثق بي؟

- لا والله، لا أريدُ أن أرهقكِ.

- إنها ورقةٌ واحدةٌ، سأكتبها في خمس دقائق فقط، أما أنتَ فقد تستغرقُ وقتًا طويلًا. ثم إن عندي فضولًا لأقرأها، هل فيها سرٌّ لا يجب أن أعرفه..

- لا، أنتِ عرفتِ الموضوع كله، لا يوجد أكثر مما عرفتِ.

- إذًا سأنتظرُ الورقةَ الأخيرة.

وعدني بأن يكتبها في نفس الأسبوع وأن نلتقي في النادي في نفس الموعد لأخذ الورقة الأخيرة. كاد الفضولُ أن يقتلني لمعرفة ما في هذه الورقة أو

الرسالة كما أسماها. عند وداعي للرجل هذه المرة أحسستُ بأنه لا يُريدني أن أرحل. لم أفهم لماذا لمْ يسمح لي باصطحابه بسيارتي إلى بيته!

بشعورٍ صادقٍ ومؤثرٍ لدرجة أوجعتني قال لي مُعاتبًا بصوت مُنكسر: «لا تنسِني، واسألِي عليَّ». آلمتني الكلمة، فأردتُ أن أخفف من جدية الموقف فهمستْ له بدلع:

- ولمَ لا تسألُ أنت عني يا جدو مصطفى؟

- نحن الكبار عِبء على الصغار، لا أريد أن أُقحم نفسي في عالمكِ، ولكننا نحب أن نشعر بحُبكم واهتمامكم دون أن نطلبه. لذلك فكُوني على راحتكِ تمامًا.

أثناء انصرافي نادى بصوتٍ عالٍ:

- أنا أتابعُ كل صورك على إنستجرام كل يوم.

ضحكتُ وأنا أُودِّعُه ونسيتُ تمامًا أن ألتقط صورًا له معي. انشغل عقلي تمامًا بكلماته الأخيرة المُوجِعة. كلماتُه آلمَتني بشدة ونكأتْ جرحًا قديمًا لطالما

تجاهلتُه.

٣٦

زياد

حققتْ خطتي نجاحًا ملحوظًا. فقد صعَّد صديقي في مصر للطيران الأمر بشكل مريب ومُقلق. في البداية وبعد طلبي منه، جاءتني مُكالمة من رئيس قسم شؤون العاملين، شكرني ووعدني بقائمة من قائدات الطائرات والمُضيفات الجويَّات في مصر للطيران منذ نشأتها. من فرط حماس الرجل عرض عليَّ أن يُسلمني قوائم بالرواد من الجنسين في جميع أقسام ومجالات العمل بالشركة الرائدة. شكرت الرجل على اهتمامه وحَددتُ له ما أريد بدقة، وعدني بإرسال القائمة في أسرع وقت.

اعتقدتُ أن الأمر انتهى عند هذا الحد، ولكن في اليوم التالي جاءتني مكالمة تيليفونية من الرئيس التنفيذي للشركة القابضة لمصر للطيران. أعلنَ دعمه للفيلم واستعداده للمشاركة المحدودة في الإنتاج. راح يسألني عن الجهة المُنتجة. جعلني الرجل أفكر

جديًّا أن أقوم بتصوير الفيلم. هذا الاهتمام المُبالَغ فيه جعلتني أستحسن الفكرة التي بدأتْ كمُجرد مِزَاحٍ. أكد لي رئيسُ الشركة الاهتمام والدعم الكامل من الشركة والحكومة للفيلم. رنت كلمة حكومة في أذني فسرحتُ قليلًا. من صديقي المدير بخدمة العملاء، إلى رئيس قسم شؤون العاملين، ثم رئيس الشركة القابضة كلها، أخشى لو تطور الأمرُ أكثرَ من ذلك ووصل إلى وزير الطيران المدني ثم رئيس الوزراء ثم...

- أستاذ زياد، حضرتك تسمعني؟

- طبعًا يا أفندم، أنا شاكر لسيادتكم هذا الاهتمام البالِغ. هل لي أن أطلب طلبًا بسيطًا؟

- بالطبع. نحن كلنا رَهْن إشارتك.

- أرجو فقط أن تُرسلوا لي القائمة بأسرع وقت. وطُرق التواصل مع المُضيفات أو قائدات الطائرات إن أمكَنَ. وبعد الاطلاع على الأسماء والتواصل مع بعضهن، فلنُحدِّد مَوعدًا لنناقش التفاصيل.

- أوافقُ على كل طلباتك، والكشفُ سيصلُك اليوم.

- طلبٌ أخيرٌ، أرجو ألا يتسرب الخبرُ الآن للصحافة أو أي جهة أخرى قبل أن أقابل السيدات. أرجوك، فلنعتبر ذلك طلبًا شخصيًّا. بعد الوصول لهن، سأُعلن التفاصيل. حضرتك أكيد تعلم أنه بغير الوصول لهن، لا يوجد فيلم...

- مُتفهم كل ذلك.

انتهت المكالمةُ على خير وأنا ألعنُ صديقي الذي أراد أن ينسج أسطورةً وهميةً على حسابي. توعَّدتُه في سِري باللعنات، ولكني عُدت لأفكِّر بأن الفكرة ليست سيئة. لماذا لا أقوم بصناعة الفيلم بالفعل. عندي الآن فكرة جيدة وجِهة إنتاج كبيرة وداعِمة. لا يتوفر مثل هذا الموقف لأغلب زملائي من الخريجين. قد أجدُ حبيبة جدو مصطفى المجهولة نفسَها وأصوِّر معها الفيلم، مما سيُقوي علاقتي بها مثلما حدثَ مع جدو مصطفى نفسه من قبل. بعدها ستعتبرني مثل حفيدها وتفتح لي قلبها، وفي يومٍ هادئٍ وقتَ العصر، ستحكي لي عن شبابها وجمالها وعن إعجاب ابن الجيران ونظرات حُرَّاس البِنايات المجاورة لها. ربما

أيضًا حكَتْ لي عن مصطفى نفسه ومحاولاته للتقرب منها بينما انشغلتْ هي بغيره. قد تكونُ تجنبتْ لقاءَه أيضًا.

هنا خطرتْ لي فكرةٌ غريبة. لماذا صدقنا كلَّ ما قاله الرجل؟ أليس لكل قصة وَجْهان؟ ماذا لو أنه هو المجنونُ المُتيم بجمالها في هذه القصة، بينما بالنسبة لها، فهو ابن الجيران غير المرغوب فيه؟ أو ربما عاملَتْه فقط كأخٍ كبير لكونه صديقَ أخيها.

عكستُ هذه الفكرةَ الدرامية على واقعي، مِنة أيضًا تتجنبُ أيَّ محاولة مني لاقتحام حُصونها. لا بُدَّ أن هناك ما يدفعها لذلك. ربما هناك شخص آخر. أنا لا أميل لهذا التفسير. التفسيرُ الآخر هو أنها تراني كصديقٍ أو أخٍ فقط مما يُعرَف بين أبناء جيلنا بلعنة الـ«friend zone». كيف أُحرِّكُ المياهَ الراكدة وأكسرُ جمود الموقف؟

أثناء تفكيري العميق رنَّ تيليفوني، جاءني صوتُ مدير شؤون العاملين، أبلغني أن القوائم كلها في

بريدي بالفعل، شكرتُه واندفعت نحوَ جهاز الكمبيوتر. لقد بذل الرجل جهدًا مشكورًا في فترة زمنية قصيرة. بالفعل وصلتني قائمة قائدات الطائرات وقوائم المُضيفات الجويَّات لعدة أعوام.

تصورتُ أن العدد محدودٌ، لكني فتحت القائمة الخاصة بعام ١٩٧٠ فوجدتُ ما يزيد على مائة مُضيفة جوية. تكرَّر نفسُ الأمر مع قوائم الأعوام التالية. رُحت أزحف بعينَيَّ بين الأسماء، لا توجدُ بيانات أو عناوين. أي منهن سكنت المعادي؟ لا أدري.

تواصلتُ مع مدير شؤون العاملين الذي اعتذرَ وشرح أن الوصول للعناوين الحالية أو القديمة شِبه مُستحيلٍ. أضاف أنه في ذلك الوقت في السبعينيات، كان العنوان المُدوَّن هو عنوان البطاقة في الأغلب، والذي لم يكن دائمًا هو عنوان السكن. نصحني باختيار بعض الأسماء والبحث عنها في الإنترنت أو عن طريق الأصدقاء. اختتم قولَه بأنَّ أغلب المُضيفات كنَّ من مصر الجديدة والمعادي والزمالك وجاردن سِيتي والأحياء الراقية وقتها.

شكرتُه مرة أخرى ورُحت أمعنُ النظر في القائمة، هل هناك أسماءُ عائلاتٍ شهيرة في المعادي مثلًا؟ مررتْ سريعًا على الأسماء في عدة قوائم. بدا الأمر مستحيلًا. فقط أسماء كثيرة لسيدات لا أعرف عنهن شيئًا.

إلى هنا انقطع الخيطُ الأخير، لا أجد إجابة لأسئلتي. انتهى الموضوع. بقي سؤالٌ واحدٌ. هو نفسه سؤالي منذ البداية: علامَ انتهى هذا الأمرُ، ولماذا؟ سؤال وحيد وإجابته موجودة عند مصطفى كمال وفيق.

قررتُ أن أواجه الرجلَ مباشرة بسؤالي لأنهي الجدل والحيرة الشديدة والفضول. قُربَ العصر، اتصلت بالرجل وقلتُ له إنني في الطريق إليه، فرِحَ بالأمر وقال إنه ينتظرني.

راودني إحساسٌ أنني على أعتاب ليلة كبيرة.

٣٧

مُصطفى

بدا اليومُ عاديًّا في البداية ثم توالَتْ الأحداثُ فجأة. صباحٌ مُشرقٌ جميل، الشمس، الشرفة، القهوة، فيروز. انفعلتُ مع مطربتي المفضلة ورُحت أستمتع بأغانيها إلى أن سمعتُ أغنية «أنا وشادي». انشغل عقلي بموضوع الحبيب المفقود لسنواتٍ طويلة. هل لو قُدِّر لفيروز أن تعرف مكان شادي وعنوانه بعد كل تلك السنوات فستزوره؟ هل ستحكي له ما مرَّ بها من سنوات؟ هل عرف شادي قبل أن يضيع أنها أحبَّته أصلًا؟

استغراقي في التفكير جعلني أُقرِّر ألا أذهب إلى النادي في موعدي اليومي، واتخذت قرارًا مختلفًا وجريئًا. حان وقتُ إرسال الرسالة، سأرسل القصة كما كتبتها أولًا ثم أجلس بعدها لأكتب الورقة الأخيرة. حصلتُ على العنوان البريدي بشق الأنفس. علَّمني سعيد ووجدي كيفية إرسال البريد الإلكتروني. عُدتُ

أصبَّ جام غضبي على الإنترنت والكمبيوتر. البريد القديم ذو الطابع والمظروف وخط اليد هو بالطبع أكثر حبًّا ودفئًا ورومانسية.

قلتُ لنفسي إن العيب الوحيد أن البريد اليدوي قد يحتاج إلى فترة طويلة، وقد لا يصل إطلاقًا. كم من قصص الحب انتهت لأن البطل أرسل كلمات حُبِّه عبر خطاب بريدي لم يصل قَطّ. أو ربما وصل إلى الحبيبة بعد أن أصبحتْ زوجة وأمًّا. هذا البريد الإلكتروني يصل في دقائق أو ثوانٍ؛ ولهذا فهو ليس سيئًا جدًّا كما أظن.

أحضرتُ ورقة التعليمات والتي كتبها لي وجدي وسعيد، وفيها خُطوات إرسال البريد الإلكتروني بالمرفقات خطوةً خطوةً. لم أكن مُتأكدًا من صحة الخطوات، فاتصلتُ بوجدي. وقلت له أن يبقى معي على الهاتف لكي أتأكد من إتمام الخطوات بشكل صحيح. وبالفعل بعد القليل من المحاولات، أرسلتُ البريد. قبل أن أرسله ذكَّرني وجدي بأهمية مراجعة عنوان البريد الإلكتروني للمرسل له حرفًا حرفًا. كل

شيء تم بسهولة غير أنني احتجتُ وقتًا طويلًا لكتابة عنوان البريد الإلكتروني. الكتابة على لوحة المفاتيح صعبة وتحتاج مني إلى وقت طويل. لذلك فسأكتب الورقة الأخيرة بالورقة والقلم كما اعتدت، المفعوصة ستساعدني على كتابتها على الكمبيوتر. أرسلتُ البريد وانتظرتُ أيَّ ردٍّ للفعل فلم يحدث شيء. شعرت بالقلق الشديد ورُحتُ أؤكد لنفسي أن الملف الذي أرسلتُه طويل بعض الشيء ويحتاج وقتًا طويلًا للقراءة.

في المساء، وبعد ساعاتٍ، فاجأني المخرج الشاب النحيف بأنه يُريد أن يراني. سعدتُ بهذه الزيارة وأخبرته أنني في انتظاره، وأن البيتَ بيتُه في أي وقت. طلبت من خليفة أن يشتري لي بعض الحلوى والعصائر لأُكرِم ضيفي.

استقبلتُ زياد بفرحة شديدة، بدا مُرتبكًا بعض الشيء. لم ينتظر طويلًا، باغتني بسؤال مُفاجئ:

- ما الذي حدثَ بينك وبين الفتاة الجميلة؟ لماذا لم تتزوجها؟ أين هي الآن؟

ابتسمتُ وهدَّأتُه وسألتُه: «ألهذا أردتَ مقابلتي فجأة؟»، اعتذر وقال إنه جاء ليطمئن عليَّ ولكن الفضول يكادُ يقتله. قللتُ من أهمية الموضوع، ولكنه أصرَّ على معرفة الأمر. سألني سؤالًا رأيته هجوميًّا بعض الشيء، أعتقد أنه أراد أن يستفزني لأحكي له:

- ربما أدركتَ أنتَ وقتها أنه لم يكن حبًّا حقيقيًّا ولكنها فترةٌ مُراهَقة...

بالفعل استفزني سؤالُه قليلًا، لا أحب مَن يضعني في موقف المُدافع عن النفس، فكَّرتُ قليلًا ثم أجبتُه بثقة جعلته يتراجعُ كثيرًا:

- لا، هو حبٌّ حقيقيٌّ تمامًا، وما زال في قلبي إلى اليوم، مثل حُبكَ لمِنة بالضبط!

٣٨

زياد

فاجأني الرجل بما لم يخطر ببالي. أحسستُ بقلقٍ شديدٍ. أول شيءٍ مرَّ ببالي أن يكون ما قاله لي وبثقة نتيجة حوارٍ دارَ بينه وبين مِنة؟ هل تحدَّثتْ مع الرجل في الأمر؟ كيف عرف ما يقول؟

- مِنة صديقتي منذ فترة طويلة، مَن الذي أخبركَ بهذا الحديث؟

- أنت الذي أخبرتني.

- أنا؟ أنا لم أفعل ذلك أبدًا.

- لقد عرفتُ الموضوع من نظراتك لمِنة. نظرتكَ لها تقول كل شيء، كل مرة. تعامُلك معها، صوتُك، سعادتُك حين تكون موجودة. الموضوع لا يحتاج ذكاءً. عيناك قالتا كلَّ شيء.

لم يكن عندي ما أرد به. لم أستطع أن أنفي أو أؤكد، لم يكن هناك داعٍ للنفي أو للتأكيد. تلعثمتُ وارتبكتُ

ونسيتُ ما جئتُ من أجله. يبدو أن الرجل استشعر ما أنا فيه من حرجٍ، فخفف عني وعرض عليَّ شُربَ العصير فقبلت. توترتُ وأردتُ الانصراف. طالَ الصمتُ بيننا وأردتُ أن أكسر حاجز الصمت فآثرتُ تغيير الموضوع..

- أما زالت حبيبتُك على قيد الحياة؟

- الحمد لله، أمدَّ اللهُ في عُمرها.

- وهل تراها؟

سكتَ الرجل لفترةٍ، فكرتُ فيها أنا أيضًا ورُحت أستجمع شجاعتي. كدتُ أنسى ما جئتُ من أجله، ردّ عليَّ بهدوء:

- يا بُني، هذا الموضوع انتهى، يبقى الحُب في القلب مَمزوجًا بقليل من الألم.

- هل يمكن أن تخبرني باسمها؟ هل أستطيعُ أن أقابلها؟ لقد قلتَ إنها سافرتْ حول العالم، هل عملتْ مُضيفةً جوية؟

هنا انتقل الارتباكُ إلى الرجل بوضوح، نظر لي نظرةً

مُتسائلةً كأنه يقول: «كيف عرفتَ كل ذلك؟»،

لأول مرة أشعر أنني تقدمتُ خطوة وتراجع هو.

- يا بُني، أرجوك، انسَ الأمر. هي سيدة كبيرة الآن ولها عائلتها وأنا لا أراها، وتكفيني الذكريات الجميلة والمشاعر التي لم يكن من المفترض أن تعرفها أنتَ ولا صديقتُك المفعوصة.

أخيرًا وجدتُ بعض الإجابات والتجاوب والتراجع، مما شجَّعني أن أتقدَّم خطوةً جديدةً وبسرعة للسؤال الأهم على الإطلاق:

- سؤالٌ أخير. لم تذكر في قصتك لماذا لم تتزوج هذه السيدة، ما الذي حدث؟ هل تقدمتَ لها وتم رفضُك مثلًا، أم ارتبطتْ بشخصٍ آخر، أم...

وقبل أن أُكمِل قاطعني محاولًا العودة إلى نقطة التوازن مرة أخرى في الحوار، فألقى بقنبلة نووية أنستني الحوار بالكامل:

- وهل لي أن أسألكَ لماذا لم تخطُب مِنة؟ أنت تُحبها وهي تُحبك، ماذا تنتظر؟

- وهي ماذا؟!

- وهي تُحبك يا بني، ولا أشك في ذلك أبدًا. وقبل أن تسألني «كيف عرفت؟»، سأقول لك نفس الإجابة، من نظراتها لك، من تقديرها الشديد لموهبتك قبل أي شخصٍ. من شعورها بالأمان لوجودكَ بالقرب منها. عندما تعرضتُ أنا لوعكة واحتاجتْ مُساعدة، أنت أول مَن خطرَ ببالها. هل ما زلتَ تريد أن تعرف حقًّا لماذا لم أتزوج حبيبتي؟

لم أرد. تُهت تمامًا في عالمٍ آخر. ظللتُ أفكر فيما قال عشرات المرات، كرر عليَّ السؤال، أحسستُ وقتها أنه لا شيءَ يهم على الإطلاق. لم أعُد أهتم بما حدثَ منذ خمسين سنة. ولا ما يحدث الآن. لا أدري هل صدقتُ كلمات الرجل أم رأيتُها منطقية أم تمنيتُ من كل قلبي أن يكون ما قال صحيحًا. تراجعتُ واعترفتُ بهزيمتي في الحوار بالضربة القاضية، ولم أهتم. ليس بعد ما قال شيء يهم أصلًا. سمعتُه يكرر سؤاله للمرة الثالثة، أومأتُ دون وعي برأسي بالإيجاب.

- لأنني كنتُ حمارًا مثلك.

أخرجني الرجل من لحظة سعادتي الغامرة وكأنما ألقى بي في بُحيرة من الماء المُتجمد بعد أن شعرتْ بالدفء الشديد. نظرتُ له باستغراب فشعرتُ أنني بالفعل حمار وأن أُذنَيَّ قد ازدادتا طولًا!

- كنت حمارًا لأني أضعتُ الفرصة تلو الأخرى لأخبرها بحُبي وأتقدَّم لخطبتها. ظللت طوال الوقت خائفًا من ردة فعلها. ظننتُ أن الوقتَ أمامي وأنَّ الحياة ستُعطيني فُرصًا أكثر لأُعبِّر فيها عن حُبي، ولكن الحياة لا تنتظرُ الجُبناء. فرَّقتنا الحياةُ والعمل، وقابل كلٌّ منَّا شخصًا آخر.. وانتهت الحكاية. وأنت ما حُجتك؟

- مِنة تشعر بمشاعري ولكنها بشكلٍ ما تصُدّني، أنتظر منها إشارة.

- وحبيبتي أيضًا شعرتْ وعلمتْ، قلتُ لنفسي ما تقول. ولكن في النهاية أنتَ الرجل، حاربْ من أجلها، لا تنتظرْ للغد. إن رفضَتْ، فلن يضيعَ عُمرك في الأوهام. ولكنها لن ترفض، فهي تُحبك. لقد خسرتُ حبيبتي

لأني خفتُ أن أخسرها، هل رأيتَ مَن هو أغبى مني؟

قالها وهو ينظر إليَّ، مما دفعني للشك أنه يقصدني بالجُملة الأخيرة. لم أجد ما أرد به على الرجل الكبير سوى أن أحتضنه بشدة. لم أشعر بنفسي إلا وقد سلمتُ عليه وأخبرته أنني لن أنتظر. اتصلتُ بمِنة وقلتُ لها إنني أريدها في موضوع هام. اتفقنا على اللقاء في مكاننا المعتاد في المقهى بعد ساعة.

وصلتُ سريعًا وانتظرتُها. أصعب عشرين دقيقة في حياتي. فجأةً وجدتُ نفسي في اللحظة التي انتظرتُها طويلًا. رُحتُ أفكر كيف سأقول لها ما أردتُ دومًا أن أقوله. أكره لحظات التوتر هذه جدًّا. طلبتُ عصير الليمون لعله يُهدئ قليلًا من انفعالي. شعرتُ بأن الدماء ستنفجر من وجهي، وأن الجميع في المقهى ينظرون نحوي. الجميع ينتظر اللحظة. الجرسون وجميع العاملين بدا عليهم القلق والارتباك. مرت قطة صغيرة بجواري رأيتها تنظر لي بإشفاق. دفنتُ رأسي بين يدَيَّ ودعوت الله أن يمر اليوم على خير. أغمضت عينَيَّ أدعو وأتمتم في سِري. فجأة سمعتُ صوتها، فأحسستُ بها

أمامي.

- ما هذا الذي فعلتَ؟ ومتى؟!

نظرتُ نحو مِنة المنفعلة وهي تشير نحو شاشة تيليفونها، لم أفهم ما تسألني عنه، سألتها فلم تُجب وناولتني التيليفون في غضبٍ. فُوجئتُ بهبة وقد نشرت الفيديو الذي صورتُه لها وكتبتْ أنه من تصويري وإخراجي. ألجمتني المفاجأة، ارتبكتُ فلم أتكلم ولم أعرف كيف أشرح لمِنة الأمر. لم أعرف تبريرًا أهم مما جئتُ من أجله. لم أقوَ على الانتظار أكثر من ذلك.

- مِنة، أنا أحبكِ.

نظرت لي مِنة نظرةً لم أفهمها، لمحتُ الدهشة في وجهها. بدا عليها السخط مما قلتُ أو اللوم. تغير وجهُها عدة مرات في ثوانٍ ثم سحبتِ الشنطة وقامتْ مُنصرفةً بعد أقل من نصف دقيقة. مما دفع الجميع للنظر نحوي وكأنني ارتكبتُ مُصيبة. تركتني مِنة دون كلمة واحدة. تركتني وحيدًا فوق خشبة المسرح، الضوءُ مُسلَّط نحوي والجمهور ينظر لي ليرى ما

سأفعل.

٣٩

مِنة

فاجأني زياد بما قال. لم أكن مُستعدةً لسماع هذه الكلمة الآن. لا أريد أن أفكر في الأمر أو أن أُكبِّل يدَيْ في علاقة ستنتهي حتمًا مثلها مثل كل العلاقات. كلُّ الرجال خائنون. زياد يعمل مع هبة، منير يجري وراء كل أنثى يلتقيها، حتى أبي الذي تركَنَا ورحل. لن أستفيد شيئًا من الدخول في علاقة تأخذني لأعلى نشوةٍ ثم تُلقي بي وحيدةً كسيرةً. أين حبيبة جدو مصطفى الآن؟ لا بُدَّ أنه تركها بعد أن مالتْ إليه. يعلم اللهُ هل تركَها قبل أن يرتبط بها، أم بعد الخطوبة أو حتى بعد الزواج. تتعدد الأسباب والترك واحد. يُسميها البعض «فركشة» أو «فسخًا» أو «طلاقًا»، في جميع الأحوال النتيجة واحدة. شعور بالوحدة والخواء والفشل وانعدام الثقة بالنفس. لا أريد أن ينتهي بي الأمرُ كما انتهى بالجميع. في الحب، لا يوجد «إلى الأبد». هناك فقط علاقة وقتية طالت أم قصرت. كلمة «أحبك» هي

في الحقيقة بداية نهاية العلاقة.

تركتُ زياد لأني أردتُ أن أبكي، ولم أُرِد أن أبكي أمامه. مشيتُ هائمةً في الشارع لا أعلم أين أذهب وماذا أفعل. مشيتُ كثيرًا وحاولت إخفاء وجهي كثيرًا. لعلَّ المارة تعجبوا لهذه الفتاة التي تمشي بسرعة دون هدفٍ مُحدد مُرتديةً نظارة شمسية بعد الغروب.

أزيز التلفون في الشنطة يؤلمني. وكأن التيليفون يُعذِّبني بتيار كهربائي قوي. المتصل هو زياد ولم أعرف ما أفعل. ليس عندي ما أقوله. كرَّر المحاولة وأنا أتوسل للتلفون أن يكف عن الاهتزاز.

عاد التيليفون ليهتز مرةً أخرى بعد صمتٍ، أخرجتُه وأنا تائهةٌ فجاء اسم «منير» أمامي. ليس هذا وقته أبدًا. كدتُ أن ألغي المكالمة ولكني تراجعت. فكرت أن تغيير الموضوع كله قد يُريحني كي أستطيع التفكير. أجبتُ المكالمة. جاءني صوتُه بسماجته التي اعتدتها وهو يسأل كالعادة عن «المُعالَجة». أخبرته أنها جاهزة. طلبتُ منه أن يقابلني لنتناقش. سألني عن مكاني،

فقال إنه سيمر عليَّ بسيارته بعد نصف ساعة.

أعرف أن أمي ستحاصرني بالأسئلة إن عُدت إلى البيت بوجهي الباكي. ستسألُ عمَّا حدثَ ولن تتركني قبل أن تعرف كل شيء. لم تكن بي أيُّ رغبة في الحديث عن الأمر. أردت فقط أن أذهب لأي مكان مُظلم وصاخبٍ فلا يراني أحدٌ ولا يلاحظني فيه أحدٌ. مرَّ عليَّ منير بسيارته الفارهة التي لم تلفت انتباهي لما كنتُ أعانيه من التفكير. طلبت من منير أن نخرج في أي مكان فيه موسيقى. ظلَّ يُثرثر بجواري ولم أهتم. طلبت منه أن أسمع أيَّ أغنية صاخبة في السيارة؛ لعلَّ صخب الأغنية يطغى على ما في عقلي من نزاعات وحرائق وحروب. أغلقت عينَيَّ وحاولت أن أنسى نفسي في صخب الموسيقى إلى أن أيقظني «منير» عندما وصلنا إلى مكانٍ ما. سألت منير أين نحن الآن؟ فأجاب: في التجمُّع. ما الذي أتى بي إلى التجمُّع؟ تركتُ نفسي مع منير يقودني في مكان مُعتم مُقبض. سألني: احكِ لي المُعالجة. هربتُ من سؤاله بسؤال:

- أراكَ طلبتَ لقائي فقط من أجل المعالجة.

- لا، بل لأنني أريد أن ألتقيكِ.. لأنني اشتقتُ لكِ.

قالها مُحاوِلًا وضع كفه فوق ظهري. لم أسترح لمحاولته لَمْسي. طلبتُ منه الاستئذان لتعديل المكياج. الحمَّام أقلُّ صخبًا. طالعتُ شاشة التيليفون، عددٌ كبيرٌ من المكالمات من أمي وزياد وجدو مصطفى. تجاهلتُ مكالمات زياد. لاحظت أن هناك مكالمتَيْن أيضًا من جدو مصطفى. بعدها وجدتُ رسالةً منه، فتحتُها بسرعة: فوجدت كلمات قليلة: «لقد أرسلتُ الملف، وكتبتُ الرسالة، أتمنى أن تكوني بخير».

الرجل يريدُ أن يقول لي إنه يريد أن يراني ولكنه لم يقلها. تذكرتُه أمامي وهو يُوصيني أن أسأل عليه. تمنيتُ أن أراه أو أتكلمُ معه الآن. أردتُ ملجأً ولم أجده. خطرت لي فكرةٌ صغيرةٌ، وظلتْ تكبرُ وتحتل عقلي حتى انهرتُ أمامها وسلَّمْت. لممتُ أشيائي واتجهتُ إلى خارج المكان. استنشقتُ الهواء النقي خارج المكان المكتوم وأنا أوقف تاكسي. دَللتُه على العنوان القريب. بيت صغير وقريب في التجمع الخامس. وقفتُ

أمام الباب وتضرعتُ أن يفتح هو. وما إن رأيتُ الرجلَ أمامي حتى تهلَّل وجهُه، انفجرتُ بالبكاء وأنا أُردد كم اشتقتُ له.

٤٠

زياد

عُدت من لقاء المجنونة مِنة وأنا أكاد أجَن. نظرات الجميع حين تركتني مِنة أشعرَتْني بأنني مُهرِّج بالسيرك. لا أعتقد أنني سأرتاد هذا المكان ثانيةً. مرّ بي يومٌ من أسوأ أيام حياتي. ما الذي حدثَ منذ غادرتْ منزل جدو مصطفى إلى لحظة نُطقي بالكلمة لمِنة؟ أين ذهب عقلي وقتها؟ لم أكن بحاجة إلى هذا التهور المفاجئ. ليتني انتبهتُ ولم أندفع وراء كلمات ذلك الرجل.

شعرتُ بالحزن العميق والخجل من الموقف بالكامل. عُدت إلى حجرتي شاردًا. لم ترُد مِنة على مكالماتي ورسائلي. أهذه هي النهاية؟ هل يتوقف العرض هنا؟ ألن تتواجد مِنة مرة أخرى في حياتي؟

منذ سنواتٍ لم أتخيل حياتي أبدًا دونها. كيف ستكون حياتي الجديدة؟ هل سيأتي عليَّ اليوم الذي أشاهد مِنة من بعيدٍ في فيديوهات يوتيوب من تصوير

وإخراج شخصٍ آخر؟

أمِ هل ترتبط مِنة وتتزوج شخصًا آخر يومًا ما؟ ولا يبقَ لي سوى ذكريات أكتبها لنفسي يومًا كما فعل ذلك الرجل؟ هل قدَري أن أرى مصيري أمامي دون أن أتمكَّن من تغييره؟ أسئلة كثيرة دارت في عقلي المُشوَّش. لم أشعر بنفسي فنمت من فرط التعب والإرهاق بملابسي. أذكر أن آخر سؤال جالَ بخاطري قبل أن تسقط الستارة السوداء كان: وهل أستطيع أن أسحب الكلمة التي اندفعتُ وقلتُها؟

فتحتُ عينَيَّ بصعوبة، غمرَ ضوءُ الشمس الحجرة مع أضواء الغرفة. التقطتُ تيليفوني، الساعة أشارت للتاسعة صباحًا. لم ترُد عليَّ مِنة لا بمكالمة ولا برسالة. تُرى ما حالها الآن؟! فقط تمنيتُ ألا يكون مكروه أصابها.

أخذت دشًّا دافئًا ساعدَني في غسل الأسئلة والظنون. خرجتْ مِنة بحالٍ أفضل قليلًا. عُدت بالقهوة إلى مكتبي بالحجرة. فتحت البريد. لفت انتباهي بريد

جديد من اسم غريب لا أعرفه. قرأتُه فوجدته ردًّا من إدارة مهرجان فينيسيا الدولي على استفساري حول طرق التقدم بفيلمي للمهرجان. جاءني «إيميل» غير رسمي من رئيسة المؤسسة الفنية المُنظِّمة للمهرجان «داريا لوتشي». كنت قد قُمت بتحميل الفيلم بجودة عالية جدًّا على أحد المواقع المُخصَّصة لذلك، وأمَّنتُ الفيلم بكلمة سِرٍّ. وقمت بمراسلة أهم المهرجانات. ردّ «داريا» جاءني سريعًا قبل أي ردٍّ آخر. أخبرتني أنها شاهدت الفيلم بشكل شخصي، وأن مستواه وموضوعه مُميزان للغاية، بالإضافة إلى أن المهرجان سيهتم بكون الفيلم يُعرَض لأول مرة في العالم، وأن ذلكَ هو العمل الأول للمخرج. ونصحتني بالتقدُّم بالفيلم رسميًّا في المواعيد المحددة للتقديم، وأرفقتْ رابطًا للتقديم مع شرح مُبسَّط لما يجب أن أقوم به. وفي النهاية تمنت لي حظًّا سعيدًا وأن تراني في فينيسيا مع زوجها المصري.

شعرتُ بسعادة كبيرة، كلُّ ما فكرت به ساعتها أن أخبر مِنة بشأن هذا «الإيميل». ولكن، للأسف. فلن

تفرح مِنة لي بعد الآن. ظلَّ وجهي مُعلقًا بصندوق بريدي الإلكتروني. وبخاصةٍ بريد مِنة. فتحت ملف أوراق جدو مصطفى. رُحت أقرأ قصَّته مرةً أخرى من البداية. هذا الرجل كاتب ماهر، له أسلوب جميل في الكتابة. توقفتُ كثيرًا عند جَمال وصفه لحبيبته. ليست عندي القُدرة لأصف مِنة بكلمات رائعة مثل هذه. شعرت بالضيق. هل لا يزالُ العجوز يشعر بذات الضيق إلى اليوم؟

عُدت إلى قراءة كلماته ثم توقفت فجأة عند كلمة واحدة. كيف مرَّت بنا هذه الكلمة دون أن نلحظ؟! ذلك الداهية يقصدُ كل كلمة كتبها، بالتأكيد فهذه الكلمة لها معنى واضح. تركتُ كلمات الرجل وفتحتُ قائمة أسماء المُضيفات ورُحت أُعِيد قراءةَ الأسماء. توقفتُ عند اسمٍ مُحدَّد. أعدتُ قراءةَ الاسم عدةَ مرات. فكرتُ قليلًا ثم اتضحت الحقيقةُ كلها أمام عينَيَّ فجأةً. اتسعت عيناي على آخرهما وأنا أعود إلى فيلمي الخاص لمراجعة مشهد معين.

صرختُ بأعلى صوتي: لقد وجدتُها. وجدتكِ أيتها

الحبيبة المجهولة! ولم أستطع أن أمنع نفسي من مُكالمة مِنة، تناسيتُ تمامًا كل ما حدث واتصلتُ بها وكأن شيئًا لم يكن بالأمس.

٤١

مِنة

لم أكن قد رأيتُ أبي منذ ثلاث سنوات!

اشتقتُ إليه كثيرًا. لم أغفر له يومًا أنه تركني وترك أمي وانفصل عنا. حدثَ ذلك منذ سنوات. لم أستطع أن أواجه أصدقائي فادَّعيتُ كذبًا أنه سافر للعمل بالخارج. ظللتُ على اتصال متقطع به، أراه على فترات إلى أن أجهزَ عليَّ بخبر زواجه. أحسستُ بعدها باليُتم. من المؤلم أن تشعر هذا الشعور بينما يعيش أبوك على بُعدِ نصف ساعة منك.

بكيت بين يديه طويلًا وكأنني أُلقِي باللوم عليه لأنه ابتعد عني، بينما الحقيقة التي ألحَّتْ عليَّ أنني أنا من ابتعدتُ عنه.

كلمة جدو مصطفى: «لا تنسِني واسأَلِي عليَّ» آلمتني كثيرًا لأنها أيضًا آخرُ ما قاله لي أبي منذ سنوات. بكيتُ كثيرًا بين أحضانِ أبي، لكنني شعرت

بالراحة الشديدة. بدأتُ أهدأ فقط بين أحضانه كما اعتدتُ أن أفعل وأنا طفلة.

سلَّم عليَّ وقبَّلني وفرح جدًّا بزيارتي المُفاجِئة. دعاني للدخول. سألته عن أحواله، فأكد أنه بخير حال. سألته لم نسيني وتركني كأنني لست ابنته.

- بعد انفصالي عن والدتك تعرضت لمضايقات كثيرة لمنعي من رؤيتك. لعلكِ نسيتِ كل ذلك، ولكن لا تنظري للظاهر. هل تذكرين كم التيليفونات التي أهديتك إياها، في كل مرة كنت أطلب منك فقط أن تتصلي بي. لعلَّك لا تعرفين ذلك ولكنك محور حياتي كلها منذ سنوات. لا يمر يوم دون أن أسأل عنك. حتى أساتذتك في الكلية عرفوني جيدًا. كل قرار أخذته في حياتي كنت أفكر في تأثيره عليكِ. أنا أتابعكِ يوميًّا. لا أترك لكِ برنامجًا ولا صورة ولا فيديو إلا وأشاهده وأفخر بكِ كثيرًا. أنا أقرأ كل كلمة تكتبينها على فيسبوك أو إنستجرام. بل وأعرف أسماء أصدقائك. عندما لمحت موهبة في كتاباتك مؤخرًا كنت أنا من طلب من صديقي الناشر أن يتصل بصديقك المخرج

لينشُر لكِ كتابًا. أنا دائمًا حولك دون أن أفرض وجودي عليك. ظللت سنوات في انتظار كلمة منكِ.

أعرف أن الآلاف يُتابعونني، ولكني لم أفكر أبدًا أن أبي واحد منهم. لسنوات اعتقدتُ أنه نسيني. تأثرتُ كثيرًا عندما علمتُ أنه يتذكرني ويتابعني ويفخر بي. تذكرتُ كلام زياد؛ أن لكل قصة وجهَيْن. فهمت أخيرًا سر الكتاب. اعتقدت لفترة طويلة أن أبي هجرني، بينما أرى الآن أنني أنا مَن هجرتُه. سألته عن أخباره وأخبار زوجته الجديدة فأجاب بأن حاله كله خير وحمدَ الله.

سألني إن كنتُ أحتاج للمال أو لأي شيء، فقلت له إنني أحتاجه هو. استغرب من كلامي جدًّا..

- وهل سبق أن احتجتِني من قبل ولم تجديني؟

- نعم، عندما تركتنا.

- أنا لم أتركِ أبدًا ولن أتركِ. لقد انفصلتُ عن أمكِ نتيجة لبعض الخلافات التي لا دخل لكِ بها، أما أنتِ فلن يفصلني شيء عنكِ ولا الموت. سيبقى اسمي مُلاصقًا لاسمكِ إلى الأبد.

- لا يوجد شيء اسمه «إلى الأبد».

- مَن قال هذا؟ الحب الحقيقي يبقى إلى الأبد، الذكرياتُ والخبرات ودروس الحياة تبقى إلى الأبد.

قضيتُ ساعة مع أبي، وأردت أن أقضي المزيد من الوقت معه. أفتقدُه بشدة وأريد أن أقترب منه بشكل أكبر. لأول مرة منذ سنوات أستعيد ذلك الشعور بحبه. تأخر الوقت كثيرًا وأنا معه. أصرَّ أن يصحبني بنفسه إلى البيت. فُوجئتُ أن سيارة أبي الجديدة مرسيدس ومن موديل حديث جدًّا كالتي طالما تمنيتُ أن أركبها يومًا. كم هي غريبة هذه الدنيا! بحثتُ بعيدًا عن مثل هذه السيارة، وهي في بيت أبي!

عاد تلفوني للاهتزاز مرة أخرى، المُتصلة هذه المرة هي أمي. طمأنتُها، أخذ أبي التيليفون وصرخ في أمي بمَرح:

- عادي، لا داعي لقلقكِ الزائد. ابنتي عندي، وسأعيدها للبيت، لا داعي للقلق. أرجو أن تكوني بخير...

أعادني أبي للبيت ولنفسي مرة أخرى. فوجئتُ بحب كبير نحوي أتى من حيث لم أتخيله أو أتوقعه. رأيتُ حقائق كثيرة غابت عني طويلًا. هدأتُ بين يديه وشعرتُ بإقبالٍ كبيرٍ على الحياة. عُدت تلك الطفلة الصغيرة التي اعتاد أبوها أن يحملها ويلاعبها منذ عشرين سنة. مشاعر كثيرة افتقدتها طويلًا استعدتها في تلك الليلة. قررت أن أكتب الكتاب وأنشره ليزداد فخر أبي بي. مما شعرت به ليلتها أنني - ولأول مرة- افتقدتُ زياد. ربما شعرتُ بذلك من قبل دون أن أشعر!

لقد أفسدتُ كل شيء بعد أن أفسد عليَّ هذا المجنون اليوم كله بتهوره. لا أعرف ما الذي دعاه لهذا التهور المفاجئ. أردتُ أن أتحدث إليه لكن الوقت تأخر كثيرًا. كما أنني لن أستطيع أن أكلمه بعد ما فعلت. لكنه لو اتصل بي لأجبته فورًا. سأنتظر، بالتأكيد سيتصل بي في أي وقت. شعرتُ بتعب كبير وسعادة أكبر. أظلمتُ الحجرة واستغرقتُ في نومٍ عميقٍ، استيقظتُ متأخرة في اليوم التالي لأجد عدة مكالمات من زياد ورسالة فيها كلمات قليلة:

- مِنة، هناك مفاجأة كبرى. لقد عرفتُ السيدة المجهولة! وجدتُها!

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

٤٢

مِنة

كنت نصفَ نائمة عندما قرأت رسالة زياد فانتبهتُ سريعًا ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أتصل به قبل أن أفكر في عواقبِ ما فعلت. عندما سمعتُ صوتَه صرخت فيه: «مَن هي؟ وكيف وجدتَها؟».

- لقد وجدتُها وتحدثتُ إليها تيليفونيًّا أيضًا!

قفزتُ من سريري في لحظة وأنا أصرخ فيه:

- مَن هي؟ كيف وجدتَها؟

- قابليني الآن فورًا وسأشرح لكِ الأمر كله. ولكن لنتقابل في مكانٍ آخر غير المقهى.

اتفقنا على اللقاء في مقهى آخر واندفعتُ والفضول يقتلني لأعرف مَن هذه السيدة. وللحق اندفعتُ وكُلِّي شوق لرؤية زياد.

في المقهى جاء زياد ومعه اللاب توب الخاص به،

سألتُه سريعًا:

- احكِ لي يا مجنون، قلبي يدُقّ بسرعة، مَن هي؟

في البداية، بدأ زياد في قراءة أبيات شعر جدو مصطفى:

الوجهُ من أضوائِه

بـدرُ السَّمـا أشـرقْ

غـرّاءُ واسـمُكِ نجمةٌ

إلاكِ لـم أعـشـقْ

عيـنـاكِ أدفـأُ مـوجـةٍ

فُي سـحـرِها أغـرقْ

يَجتـاحُـني فـي دهـشةٍ

هـذا الـمَدَى الأزرقْ

أما الوجهُ واللون والعينان، فمعنى الكلام واضحٌ، وأما «اسمكِ نجمة» وقفت أمام هذه الكلمة طويلًا. في البداية قلتُ إن اسمها «نجمة»، أو إن اسمها

يعني «لامع» أو «واضح»، أو إن اسمها من أسماء النجوم المعروفة، وهي أسماء غير عربية. عُدت إلى قائمة أسماء المُضيفات لأراجع الأسماء، لعلّي أجد اسمًا يُفسر لي الأبيات. توقفت عند هذا الاسم طويلًا: «نادية زكي لطفي». اسمُها «نادية لطفي» كالنجمة! ثم فكرتُ قليلًا. ما اسم حفيدة الرجل؟

- نادية!

- بالضبط، لقد سمَّى جدو مصطفى حفيدته على اسم حبيبته.

- أكملْ أرجوك، كيف توصلتَ لها؟

- انتظري، عندي لكِ مُفاجأتان، الأمر لا يقتصر على هذا فقط.

- قُل لي بسرعة...

عاد زياد إلى فيلمه التسجيلي عن «كامل الحلاق» وبحث عن لَقطة محددة إلى أن وجدها. أستاذ وجدي وهو يُعرِّف نفسه في بداية حديثه عن كامل:

- أنا وجدي زكي لطفي من سُكان المعادي طوال عمري...

- أُختَه؟

أومأ زياد برأسه. لم أصدق ما سمعت. إذًا فالجميلة ذات العينَيْن الزرقاوَيْن هي أخت وجدي الأرستقراطي. لهذا كان جدو مصطفى يرفض مناقشة القصة أمام أصدقائه بعكس كتاباته الأولى عن المعادى! يا لها من مفاجأة. وماذا لديك أيضًا، كيف وصلتَ لها؟

- اتصلت بمدير شؤون العاملين، أعطيتُه الاسم بالكامل ثم طلبت عنوانها أو رقم تيليفونها بأي شكلٍ. بعدها بساعة عرفتُ العنوان والرقم وباقي المعلومات. هي أرملة، لها ولدان، وتعيشُ في المعادي. لم أستطع الانتظار فاتصلتُ بها. قلت لها إنني صحفي وأريد الحصول على حديث صحفي عن مُضيفات مصر للطيران قديمًا وحديثًا. هل تعرفين بمَ أجابت؟

- بمَ أجابت؟

- دعتني لمقابلتها في نادي المعادى فى أى يومٍ،

حيث إنها تكون هناك كلَّ صباحٍ حتى الساعة الثالثة عصرًا. أي أن جدو مصطفى كذبَ عليَّ عندما قال لي إنه لا يراها. هو يراها يوميًّا، بل ويتنظرها أيضًا. ينتظر مع أخيها ليراها يوميًّا قبل أن تغادر النادي!

- لهذا السبب رفض دعوتي عدة مرات لتوصيله إلى بيته! أنا أريد أن أراها!

- لا داعي لنكشف سِر الرجل. لكننا نستطيع أن نراها دون أن نلفت الأنظار!

- كيف؟!

- نُقابل جدو مصطفى وصديقه في النادى عند الثالثة عصرًا!

وافقتُ زياد، أردتُ فقط أن أراها قبل أن أغلق الموضوع نهائيًّا حافظةً سِرّ الرجل كما ائتمننا عليه. أردتُ أن أراها للمرة الأولى والأخيرة. فجأة تذكرتُ رسالة جدو مصطفى بالأمس. كدتُ أنساها وسط الأحداث العجيبة التي مرَّت بي منذ الأمس. فتحتها وأعدتُ قراءة ما جاء فيها. لمَن أرسل الرجل الملف،

وماذا كتب في الرسالة؟ هل جُنَّ جدو مصطفى فصارح «نادية لطفي» بعشقه الأزلي على كبر؟ السيدة كبيرة وأرملة ولها بيت وأولاد وغالبًا أحفاد. هل جُنَّ الرجل بسبب العُمر والوحدة؟

اتفقتُ مع زياد أن أُحدِّد موعدًا مع جدو مصطفى في اليوم التالي في الثانية مساءً بالنادي، على أن نصل معًا متأخرين نصف ساعة. لعلَّنا نجد «نادية لطفي» ذات العينَيْن الزرقاوَيْن.

- لماذا أخرجتَ الفيديو لهبة؟

- أقسم إنني لم أفعل، أنا فقط صوَّرته في لحظة يأسٍ واعتذرتُ عن إتمامه و...

قاطعتُ زياد فجأة قبل أن أتركه، لمستُ يده لأوقف شرحه وألقيت بما لديَّ هامسةً:

- وأنا أيضًا أحبكَ يا زياد.

ثم دفعتُ جسدي بعيدًا بين زحام المارة دون أن أنظر خلفي أو أن أنتظر ردًّا.

٤٣

زياد

تغيرتْ حياتي بالكامل بعد كلمة مِنة. حياتي بعد هذه الكلمة أصبحت غير حياتي قبلها. تأملتُ نفسي في المرآة فرأيت ملامحي ليست كما كانت. بدأتُ حياة جديدة منذ ذلك اليوم ومنذ تلك اللحظة.

يومًا ما سأكون فوق مسارح مهرجانات «كان» و«فينيسيا» و«لندن» و«تورونتو» ستكونُ بجواري، يدُها في يدي. ولو كلَّفَني الأمر أن أنتظرها لساعاتٍ لعمل المكياج أو انتظارها لتنتهي من تصوير الطعام قبل أن آكُله. أعشقُ كلَّ ذكرياتي المجنونة معها.

انطلقتُ مع مِنة في رحلتنا إلى المعادي التي أحببناها بعد أن قرأنا كلمات جدو مصطفى المُحِبَّة وتغزُّله فيها. اتفقنا على زيارة جدو مصطفى بشكلٍ مُتواصل معًا. لعلَّه يرى نهاية لقصة حُبٍّ أفضل من نهاية قصته. تعمدنا الوصول بعد الثانية والنصف.

لم أنسَ أن أسأل مِنة عن كتابها الذي تعاقدَتْ عليه مع دار النشر. ضحكَتْ وقالت لي إن «الفنكوش» جاهز طبعًا، ويتبقى لها فقط بعض الرتوش الأخيرة لتعالج المُعالَجة قبل أن تُرسلها إلى دار النشر. تعجبتُ من موضوع «تُعالِج المُعالَجة» فضحكتْ مِنة بشدة. فهمتْ أنها لم تكتب شيئًا على الإطلاق. اقترحتُ عليها أن تكتب كتابًا مع جدو مصطفى، فأنا أحببتُ أسلوبه وطريقته في الكتابة، لا شك أن تعاون مِنة معه سيُفيدها كثيرًا.

رتبتُ مع مِنة أن نتأكد من وجود وجدي قبيل الثالثة عصرًا، ولو تطلَّب الأمر أن نطلب المرور لإلقاء السلام عليه. حذرتُ مِنة بألا يصدر عنها ما يُشعر الرجل بأننا عرفنا حبيبته، وتحديدًا في وجود «وجدي».

كنا مُشتاقَيْن لنرى «نادية لطفي» ولو لمرة واحدة. بعدها سننسَى القصة بالكامل، ستصبح ذِكرى جميلة عزَّفتنا على رجلٍ جميلٍ اعتبرناه جدّنا من وقتها.

في النادي انفرد بنا جدو مصطفى في حديقة

النادي. رأيتُ معه مظروفًا حسبتُ أن فيه الورقة الأخيرة أو الرسالة. طلب من مِنة أن تكتب الورقة الأخيرة على الكمبيوتر وأن يرسلاها معًا في اليوم التالي فوافقتْ دون تردُّد. كاد الفضول أن يقتلنا. أرَدْنَا بشدةٍ أن نعرف ما في هذه الرسالة، ولمَن كُتبَتْ. مدّ الرجل يده بالمظروف لمِنة وهو يؤكد علينا أن نحفظ السِّر. وعدناه ذلك. التقطتْ مِنة المظروف وفتحته بسرعة، وبدأتْ في قراءة السطر الأول فابتسمتْ بشدة وهي تنظر إلى الرجل وتقول:

- بالطبع. كيف لم أعرف ذلك منذ البداية؟!

اقتربتُ من مِنة وعدلتُ من وضع الورقة لأرى ما فيها، ورُحنا نقرأ في صمت...

٤٤

الورقةُ الأخيرة

إلى حفيدتي؛ حبيبتي الجميلة نادية،

منذ أسابيع، سألَتني شابة أكبر منكِ بقليل إن كنتُ قد وقعتُ في الحب من قبل أم لا. وهل هناك إنسان لم يملأ الحبُّ قلبَه أو يُقلق العشقُ منامَه؟ رجلٌ في مثل عُمري بالتأكيد مرَّ بالعديد من تجارب الحب الفاشلة والناجحة، الحقيقية والكاذبة. عشتُ لحظات فرحة قليلة ولحظات انكسار وحسرة أكثر. وكلما أحببتُ بصدق توقف لساني عاجزًا عن التعبير. كتمان الحب خطيئة كبرى. ومع تقدُّم العمر صِرتُ أكثر تحررًا من قيود حياة أُوثِكُ أن أُودّعها.

تفاصيلُ كثيرة تلاشتْ من ذاكرتي بفعل الزمن. كما تمر مَوجة قوية لتمحو ما كتبناه بأيدينا على رمال الشاطئ. وما حياتُنا بكُلِّ ما فيها إلا رمالُ شواطئ ستُمحَى من الوجود بعدَنا. تُناوِشني الذكريات وتهرب مني. فأرى خيالاتٍ لأشخاص أعرفهم جيدًا. أحبهم

وأتذكر حياتي معهم وما فعلناه معًا. ولا أتذكر أسماءهم. ولكن تبقى وجوهٌ وأسماء محفورة في الذاكرة. أشخاصٌ قليلون، أسماؤهم مُسجَّلة في لوحةٍ عاليةٍ، في القلب لن تطولها الأمواج.

عندما سألَتْني الشابةُ عن الحب، هل تعلمين مَن أوَّل شخصٍ خطرَ على قلبي؟ لعلَّكِ الآن تقولين إنها تلك الحبيبة المجهولة التي كتبتُ لكِ قصتي معها، ومدى عِشقي لها. لا يا حبيبتي، لقد تذكرتكِ أنتِ. تذكرتكِ وأنتِ طفلة في الخامسة من عمركِ تلعبين معي وقد ملأ حبكِ قلبي.

كان خبرُ وصولكِ العام القادم لمصر والإقامة معي أثناء دراستكِ الجامعية أسعدَ خبرٍ سمعته منذ يوم وفاة جدتكِ. أنا أعدُّ الأيام لأراكِ. لعلِّي أقضي معكِ آخرَ أيامي وأسعدها.

أنتِ مني، أنتِ امتدادي، أنتِ - بشكلٍ ما - أنا. وأنا ما كتبتُ كل هذه الأوراق إلا لكِ أنتِ.

لعلكِ الآن تتساءلين: ما الذي دفعَني لأكشف لكِ عن

عشقي الأزلي لهذه المرأة منذ رأيتُها وإلى آخر يومٍ في عمري؟ حسنًا، سأخبركِ. أولًا دعينا نتفق أن يبقى كلُّ ما في الأوراق سرًّا بيننا. أحب أن أترك الدنيا ومعكِ ذكرى منِّي، وسِرٌّ كبير بيننا، يُذكركِ بي ولا يعلم عنه أحد. ثانيًا، دعيني أقص عليكِ القصة منذ البداية..

هل تعلمين أنني أولُ مَن حملكِ بين يديه قبل والديكِ؟ هل تعلمين أنني مَن اخترتُ اسمكِ؟ هل تتذكرين كيف كنا نقضي وقتنا في اللعب معًا عندما كنتِ طفلة في الخامسة من عمركِ؟ كيف كنتِ تقضين نهاية الأسبوع معي ومع جدتكِ الراحلة؟ هل تذكرين عندما كنت أقصُّ عليكِ القصص لتنامي؟

كل ذلك قبل أن ترحلي مع والديكِ إلى العالم البعيد، تاركةً جدكِ وذكريات طفولتكِ معي هنا في هذا البيت. أحسبكِ تتذكرين، فلعلَّ ذاكرتكِ أقوى من ذاكرتي. ومع مرور السنوات، كبرتِ وأصبحتِ فتاة جميلة. لكنكِ أيضًا صِرتِ بعيدة. شعرتُ مؤخرًا أنني فقدتكِ.

ذات يوم، وأنتِ طفلة، كنت أقرأ الجريدة، وكنتِ

تريدين اللعب معي. جذبتِ الجريدة وسألتِني بخبثٍ أنثوي مُحبب: «هل تُحبني؟»، وبعينين مُحبتَيْن وابتسامة أجبتكِ باستنكار: «وهل هذا سؤال؟ بالطبع أحبكِ جدًّا»، فأجبتِني مُتسائلةً بطفولة بريئة: «كم تُحبُّني؟»، سؤالكِ هو الذي أوحى لي بكتابة هذه الأوراق لتكون جسرًا يقربني منك مرةً أخري.

يا حبيبتي إن الحب ليس بالكَم، إنما العِشقُ مقامات في القلب، وكلُّ ما أردتُ أن أقوله لكِ، إن مقامكِ في قلبي كمقامها، مثل ما اخترتُ لكِ اسمها. لعلَّكِ الآن تشعرين بعلو مقامكِ عندي. أو لعلَّكِ الآن وجدتِ إجابة لسؤالكِ فعرفتِ «كم» أحبكِ، ولمَ كتبت لكِ كلَّ هذا. أدعُو الله أن يمد في عمري للعام القادم. لتكوني معي وبجواري، ولتمحُ الذاكرةُ ما تمحو، فستبقين دومًا في قلبي.

حبيبتي، عاهدتُ نفسي ألا أكرر أخطاءَ الماضي. لو صادف قلبكِ حبًّا حقيقيًّا فلا تكتميه. لا أعرف هل سيمتد العُمر بي لأراكِ، أم أنني سأرحل قبل ذلك اليوم. في الحالتين، أرجو أن تُذكركِ تلك الرسالةُ بي

دومًا، فإن داعب طيفي ذاكرتكِ يومًا فادعي لي، فأنا من كل قلبي، ومن أعلى مراتب ومقامات العِشق فيه.. أحبكِ.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

٤٥

زياد

مع نهاية الرسالة، دون كلمةٍ واحدة، احتضنتْ مِنة جدو مصطفى وهي تؤكد أن نادية مَحظوظة لأن لديها جدًّا مُحبًّا مثله.

قالت وهي تمسح دموعَها:

- هذه الرسالة بهذا الخط الجميل أغلى وأثمن مَن أن أكتبها على الكمبيوتر. عندي اقتراح أفضل، سأقوم بمسح صورة إلكترونية من الرسالة لتُرسلها كما هي بالبريد. وعندما تأتي نادية، أعطِها الخطابَ بخط يدك. أنتم جِيل محظوظ بالورقة والقلم والخطابات. الكتابةُ على الكمبيوتر باردة، لا تتناسبُ مع كل الحب المكتوب بخط اليد..

وافقها جدو مصطفى. لا أعتقد أنه فهمَ تفاصيلَ ما ستقوم به. أعادتْ مِنة الرسالةَ داخل المظروف سريعًا عندما لَمحْنَا وجدي يتجه نحوَنا ومعه صديقٌ آخر.

أخبرتُ جدو مصطفى ووجدي أن فيلمي القصير الذي قاما ببطولته قد لقيَ قَبولًا مبدئيًّا للعرض في أحد أهم المهرجانات العالمية. ترحَّم جدو مصطفى على «كامل» الذي لم يحلم يومًا بأن يسافر خارجَ حدود المعادي والبساتين.

بعد الثالثة بقليلٍ، استعدَّ وجدي للرحيل، لم أرَ أيَّ أثر لشقيقته. نظرتُ لمِنة دون لفت الانتباه، تبادلتْ عُيوننا التساؤلات. سأل وجدي مُصطفى:

- هل ستُرافقنا؟

- ممَّ، سأنتظر قليلًا مع ضيفَيَّ.

هَنا قُمت لأحل الموقف وقلتُ لجدو مصطفى إننا سنرحلُ أيضًا، وسنمرُّ عليه في اليوم التالي. أثناء الاستعداد للرحيل، هتفَ وجدي سريعًا: «ها هي نادية، هيَّا بنا يا مُصطفى». حاولنا التظاهرَ بعدم الاهتمام لكيلا نُثير أيَّ شُكوك.

ودَّعنا الرجلَيْن ونظرنا نحو الممر المؤدي إلى الباب الرئيسي. رأيتُ سيدتَيْن مُتجهتَيْن نحو الباب من بعيدٍ.

مِلتُ برأسي نحو مِنة وهمستُ في أذنها: «ومَن صديقتُها هذه؟ فاتن حمامة أم مريم فخر الدين؟!»، كتمت مِنة ضحكتها وهي تُشير لي بالصمت لكيلا نَفضح أنفسنا.

تَبعنا الرجلَيْن ببُطء نحو الباب في انتظار اقتراب السيدتَيْن. وعند الباب اختلستُ نظرة سريعة نحو السيدتين. لم يكن من الصعب التعرُّف على «نادية لطفي». رأيتُ العينَيْن الزرقاوَيْن في وجهِ عجوز جميلة. كانت على نفس القدر من الجمال الذي وصفَهُ الرجل. ما زالت رشيقةً وتحملُ نفس مسحةِ أخيها الأرستقراطية. لم أمعنِ النظر لكيلا ينكشفَ أمري، حوَّلتُ بصري نحو جدو مصطفى الذي سلَّم عليها وفي عينيه بريقٌ أعرفه تمامًا. نفس ذلك البريق الذي فضحَني من قبل.

ياه.. أما زلتَ تنظر نحوها هكذا بعد خمسين سنة؟ تمُرُّ السنين ويبقى ما في القلب، لا يُغيره تغيُّر الزمان أو المكان. تبقى الحقيقةُ المجردة موجودة في مكانٍ ما في قاع العين مَوصول بالروح. تتلاقى من خلاله

الأرواحُ فتلمع الأعينُ في نشوة في لحظة اللقاء. تبعتُ الرجل ببصري وهو يمشي معهم مُبتعدًا.

هبَّت نسمةٌ خفيفة من هواء العصر العليل، حَرَّكت أوراقَ أشجار المعادي الكبيرة حولنا. عُدت ببصري لمِنة التي انشغلتْ بدورها بمتابعة الرجل من بعيدٍ وهي قابضةٌ على مظروفٍ فيه آخرُ سُطور الحكاية.

التفتتْ إليَّ فتلاقتْ أعيُننا، لمحتُ في عينيها نظرةً انتظرتُها طويلًا. ابتسمنا دون أن نتكلم، مرَّ الموقف كله في ثوانٍ. أمسكتُ يدَها ومشينا معًا مُبتعدَيْن في الاتجاه الآخر.

تمَّتْ

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

شُكرٌ وامتِنان

الحمدُ للهِ أولًا وأخيرًا.

أتوجهُ بشُكر خاص لأمي وعائلتي التي استلهمتُ روحَ النص منها.

شُكرًا لكل مَن قرأ لي كتابًا. شُكرًا لهؤلاء الذين استضافوني في نوادي القراءة والصالونات الثقافية، ومَن رشَّحوا كتاباتي (الشروق، المعادي بوك كلوب، مركز الهالة، صالون إدراك، وغيرهم الكثير). وأخصُّ بالذِّكر (مع حِفظ الألقاب) أشرف العشماوي، صافيناز صادق، حُسام صابر، مِنة الله عزوز، سارة فؤاد، إلهام الهَاشمي، نادية أبو العلا، خالد فتحي، حسن شُقير، هالة البشبيشي، دينا السَّقا، محمد عَمرو، إيمان الغايش، بُولا ناجي... والقائمةُ لا تنتهي.

شُكر من القلب لأوائل مَن قرءوا هذا النص: هُدى أبو زيد، أسامة أبو القاسم، د.أحمد سلامة، د. أحمد خيري العمري، ولِينا النابُلسي. مُلاحظاتُكم وآراؤكم ساهمتْ بشكل واضح في خُروج النص بهذا الشكل. شُكر خاص

لزميلي الشاعر والمهندس: محمد حمدي غانم، على أبياته الشعرية الجميلة.

شُكرًا للكُتَّاب المَوهوبين شَباب «ليلة في القاهرة»، وخُصوصًا مَن أهدى أعمالَه لي، وأنتظرُ كلَّ أعمالكم بِشَغف.

ولمُصطفى كمال إبراهيم، وحسين وفيق سيف... لن أنساكم أبدًا؛ فأنتم في أعلى مقامات العِشْق في قلبي.